الشيخ فوزي آل سيف

شيعة القطيف والأحساء
عراقة الماضي وتطلعات المستقبل

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار الواحة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان — بيروت — شارع الحمراء

ص.ب ٥٢٢٧ / ١١٣

هاتف ٩١٩٥٥٢ / ٠٣

بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة
والسلام على محمدٍ وآله الطاهرين

مقدمة

بين يدي القارئ الكريم إضمامة أحاديث كانت، لولا رغبة عدد من الأفاضل، طليقةٍ عن قيد الكتابة. وهي تتحدث - ضمن لغة الجمهور العام هادفةً الوصول إليه - عن الجذور التاريخية للتشيع في منطقتنا، ومن أين جاء كل هذا الولاء لأهل البيت عليهم السلام، وكيف طوى هذا المجتمع السنين العجاف، والمراحل الصعبة حتى اليوم..

كما تحاول أن تتأمل في عدد من المشاكل التي يعيشها هذا المجتمع في واقعه المعاصر، فتمنعه عن الانطلاق والحركة، وتعيقه عن تحقيق آماله وأهدافه. لا لكي تكرس النظرة السوداوية المتشائمة، التي تضخم المشاكل والهموم لتبرر التقاعس والكسل، وتعتذر - بتلك الصور المضخمة للعقبات - عن الفاعلية والمبادرة. وإنما لكي تبين أن هذه المشاكل - وغيرها - لا يمكن أن تزال إلا عندما ينظر إليها نظرة واقعية، ويُبدأ في وضع البرامج العملية لحلها.

وأخيرا تتحدث عن طموح وأمل - وهو أمر غريب إذ هو حق طبيعي، لكنه في الحال التي نتحدث عنها، طموح وأمل - أن يتم الاعتراف بالتشيع في البلاد، بحيث لا يكون المتعبد به هدفا لحملات الطائفيين التكفيرية والاقصائية، ولا يُحارب في رزقه وعيشه، تعلمه وعمله، بسبب انتمائه لهذا المذهب..

هي دعوة للتفاعل والتعاون والبناء، وهي كلمات تهتم بتحقيق الانسجام والسلم الاجتماعي بديلا عن دعوات التشنج، وثقافة الكراهية، وتعبئة التكفير..

قد لا تكون مفصلة وموسعة.. وقد لا تكون معمقة، وقد لا تكون..

ولكن أرجو أن تكون دعوة مخلصة ! ومؤثرة !

فوزي آل سيف

تاروت - القطيف

الجذور التاريخية للتشيع في بلادنا
(القطيف والأحساء)

قال سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام:

«أي بني.. إني وإن لم أكن عمَّرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسِرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم.بل كأني بما انتهى إلي من أمورهم قد عمَّرت مع أولهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله وتوخيت لك جميله، وصرفت عنك مجهولة»[1].

تنبع أهمية الحديث في هذا الموضوع من جهات متعددة:

١/ الجهة التربوية

يؤثر تاريخ المجتمعات في مسيرة أبنائها، ويضيف إلى ثقافتهم، معارف جديدة، بل يمكن القول أنه يضيف إلى أعمارهم، عمرا جديدا، ويجعل الواحد منهم حكيما بخبرة التاريخ، ومعرفة السنن التي مرت على غيره.وهذا ما يشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام.

كما أن معرفة الفرد بتاريخ مجتمعه، وأسلافه يحفزه للسير على منهاجهم في الهدى والحق، ويصور له النتائج القاسية التي حصلت للذين تنكبوا سنة الله، وتجاوزوها ويسعى على أثر ذلك لكي يبتعد عن ما وقعوا فيه { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين }[2].

---

(١)نهج البلاغة ٣ ص ٤١.

(٢)سورة آل عمران آية ١٣٧.

وإذا كانت هناك دعوات في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، للتأمل في أحوال الأمم الأخرى، كبني إسرائيل وغيرهم مع وجود اختلافات كثيرة بين هذه الأمة وبينهم، فإن من الأولى أن يتأمل المجتمع في تاريخه حيث يعيش ظروفا متقاربة، وتؤثر فيه نفس المؤثرات.

٢/ الجهة الوطنية

يلحظ المتأمل في هذه الفترات وجود شبهات تثيرها فئات معينة، تحاول أن تنسب الشيعة في بلادنا إلى خارج الحدود، وأنهم جاؤوا من أماكن أخرى، ولهم برنامج خاص، وأن لهم ارتباطات مع الخارج.. إلى غير ذلك مما يبثونه بغرض التشويش، والتشويه.

ومع أنه يصدق عليهم القول «رمتني بدائها وانسلت» حيث أن هؤلاء هم نفسهم الذين بايعوا من في الخارج (بإمرة المؤمنين) وقاتلوا تحت تلك الألوية، وأحيانا ضد بلادهم وأمنها.إلا أنهم يثيرون هذه الشبهات.

وسوف يلاحظ القارئ أن شيعة أهل البيت عليهم السلام في هذه المنطقة، والذين يعود تاريخهم إلى اليوم الأول لدخول الإسلام كانوا الأكثر حرصا على المنطقة، وبذلوا لأجل عزتها وبقائها واستقلالها الغالي والنفيس إلى يومنا هذا بالرغم من كل الظروف القاسية التي مرت عليهم.

سوف يلاحظ أنهم كانوا في فترات مختلفة، معرضين لهجوم الأعداء على مستويي الاستئصال وأحيانا الانفصال، فقاوموا الأول بالصمود والدفاع، والثاني بالاتحاد والاعتماد على القوة الإسلامية، غير ناظرين إلى مواضع الخلاف المذهبي بقدر ما نظروا إلى الحالة الإسلامية الجامعة.

٣/ جهة المسؤولية الفردية

فهذه الكلمات عبارة عن تحميل الأفراد في هذا الزمان لمسؤوليتهم، كما تحملها أسلافهم، في الحفاظ على العقيدة الإسلامية، وفي صيانة المجتمع والوطن من عوامل الفرقة والتشرذم.

الحديث هو عن تاريخ التشيع في هذه المنطقة الممتدة بين (القطيف، والأحساء والبحرين) الحالية والتي تختلف مسمياتها بحسب المراحل التاريخية.. فكيف وُجد التشيع لأهل البيت عليهم السلام فيها؟

هل جاء التشيع إلى هذه المنطقة على أثر هجرات تمت من قِبَل عوائل شيعية أو قبائل، كما نُقل ذلك بالنسبة إلى جنوب لبنان؟ حيث ينقل بعض المؤرخين بأن التشيع قد حصل فيه على أثر هجرة قبائل (بني عاملة) من اليمن، تبعا لظروف خاصة، واستقروا هناك ونشروا التشيع في تلك المنطقة.. ويستبعد هؤلاء أن يكون انتشار التشيع هناك بواسطة أبي ذر الغفاري الذي نُفِي من المدينة - أول الأمر- إلى الشام، ثم هُجّر إلى المدينة مرة أخرى، لينفى أخيرا إلى الربذة ويموت فيها وحده، ويحشر يوم القيامة أمة وحده [1].

أو هل كان على أثر تحول عقيدي، حصل لدى الرؤساء كما نقل ذلك بالنسبة إلى إيران وقصة العلامة الحلي - رحمه الله- مع الشاه محمد خدابنده (ت ٧١٧ هـ)، الذي عقد مجلس المناظرة بينه وبين علماء سائر المذاهب فتشيع وتشيع على أثر ذلك الوضع الإيراني؟[2]

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٥٤:

لما حضرت أبا ذر الوفاة وذلك في سنة ثمان في ذي الحجة من إمارة عثمان نزل بأبي ذر فلما أشرف قال لابنته استشرفي يا بنية فانظري هل ترين أحدا قالت لا قال فما جاءت ساعتي بعد ثم أمرها فذبحت شاة ثم طبختها ثم قال إذا جاءك الذين يدفنوني فقولي لهم إن أبا ذر يقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا فلما نضجت قدرها قال لها انظري هل ترين أحدا قالت نعم هؤلاء ركب مقبلون قال استقبلي بي الكعبة ففعلت وقال بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم خرجت ابنته فتلقتهم وقالت رحمكم الله اشهدوا أبا ذر قالوا وأين هو فأشارت لهم إليه وقد مات فادفنوه قالوا نعم ونعمة عين لقد أكرمنا الله بذلك وإذا ركب من أهل الكوفة فيهم ابن مسعود فمالوا إليه وابن مسعود يبكي ويقول صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يموت وحده ويبعث وحده فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه.

(٢) يراجع ترجمة حياة العلامة الحلي في مقدمة قواعد الأحكام، طبع مؤسسة النشر الإسلامي - قم، وغيره من الكتب التي تعرضت لترجمة حياته.

الحقيقة غير ذلك: والتاريخ يحدثنا عن طريقة أخرى:

أن المنطقة الواقعة على ساحل الخليج والتي كانت تُعرف أحيانا بالخط، أو البحرين أو القطيف، كان يقطنها ربيعة وعبد القيس ولكونها منطقة ذات خيرات زراعية كثيرة، وذات موقع ممتاز فقد سيطر عليها الفرس باعتبارهم الدولة الأقوى القريبة من المنطقة، وولوا عليها واحدا من أبنائها كعامل ووال.وهو المنذر بن ساوي العبدي..

ولما بُعث رسول الله رحمة للعالمين، وأسَّس في المدينة دولة العدل النبوي، بدأ بمراسلة من حول المدينة لدعوتهم إلى الإسلام، خصوصا بعد أن استقر له الأمر، وتغلب على قريش وعلى بقية أعدائه في عدد من الحروب والغزوات، بحيث يئس الذين كفروا من القضاء على الدعوة، واضطروا إلى التوقف مليا عن القتال.هنا استفاد النبي ﷺ من الفرصة فبدأ يعرض الإسلام على القبائل والمجتمعات، بعدما كان يعرضه على الأفراد في مكة.فبعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي برسالة إلى المنذر بن ساوي، جاء فيها «..فإني أدعوك إلى الإسلام اسلم تسلم، اسلم يجعل الله لك ما تحت يديك، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر..»، فذهب العلاء إلى عبد القيس - وهم أسلاف هذه المنطقة وسكانها - ودفعها إلى المنذر العبدي.

لم ينتظر المنذر كثيرا بعد أن قرأ رسالة النبي، وبعد أن أخبره العلاء بالمعالم العامة للدين بل اسلم وجمع قومه، ودعاهم للإسلام فأسلموا.ورجع العلاء بن الحضرمي لرسول الله يخبره بسرعة قبول المنطقة للدين، وهنا أرسل النبي أبان بن سعيد بن العاص[1].وهنا

(١) أبان بن سعيد بن العاص بن أمية، وإخوته خالد، وعتبة، مصداق لقول الله تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} (الروم:١٩)، فإن أباهم سعيد بن العاص قد قتله أمير المؤمنين عليه السلام ببدر، لكن أبناءه كانوا من أولياء أمير المؤمنين عليه السلام ولم يبايعوا بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى بايع بنو هاشم وأمير المؤمنين. يراجع معجم رجال الحديث للإمام الخوئي ١/ ١٤١

اختلف المؤرخون فبعضهم يقول: إن العلاء[١] بقي واليا على قسم من المنطقة وأبان على الآخر، وبعض يقول أن أبان كان بديلا للعلاء..

في السنة التالية جاءت الوفود لرسول الله ومنهم وفد عبد القيس يرأسهم المنذر بن ساوي، والجارود العبدي الذي نعته الإمام علي عليه السلام بالصلاح[٢].. وسألهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ممن القوم فقالوا من ربيعة، فقال: مرحبا بقوم غير خزايا ولا نادمين.

قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: كان لعبد القيس وفادتان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه قال لأصحابه: سيطلع عليكم ركب من هنا هم خير أهل المشرق فكان أن طلع عليهم وفد عبد القيس.والثانية كانت في عام الوفود[٣].

ونقل النميري في تاريخ المدينة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال للأنصار: يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام أشبه شيء بكم شعاراً وأبشاراً، أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قُتلوا.

وبعض المؤرخين يذكر هنا في سبب تسمية جواثا.. المسجد المعروف الموجود في الأحساء والذي أقيمت فيه أول جمعة بعد المدينة، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أرسل رسوله إلى عبد القيس أمره بأن يتخذ مكان

---

(١) يستفاد من بعض القرائن كون العلاء الحضرمي أو (ابن الحضرمي) من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وأما ابنه عبد الرحمن فقد ورد ذكر اسمه في أسانيد كثير من روايات مناقب الإمام علي عليه السلام كما في الأمالي- الشيخ الصدوق ص ٥٧٤: بسنده إلى رسول الله أنه كان جالسا ذات يوم وعنده علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فقال: اللهم إنك تعلم أن هؤلاء أهل بيتي وأكرم الناس علي فأحبب من أحبهم، وأبغض من أبغضهم، ووال من والاهم، وعاد من عاداهم، وأعن من أعانهم، واجعلهم مطهرين من كل رجس، معصومين من كل ذنب، وأيدهم بروح القدس.

(٢) في رسالة منه إلى ولده المنذر: فإن صلاح أبيك غرَّني منك وظننت أنك تتبع هديه وتسلك سبيله - نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام ج ٣ ص ١٣٢.

(٣) فتح الباري - ابن حجر ج ١ ص ١٢١.

جثو الناقة مسجدا[١]، فكان هذا الموضع، وقد صليت الجمعة في المدينة ثم في الأحساء في هذا المسجد.

هناك روايات تقول أن أبا هريرة أيضا كان مع العلاء وكان مؤذنا له، وأنه بقي هناك إلى أن توفي الرسول فلم يرجع إلى المدينة، ومن هذا يقول هؤلاء المؤرخون أن فترة وجود أبي هريرة مع النبي لم تتجاوز السنة وتسعة أشهر حيث أسلم في أواخر صفر سنة ٧ هجرية وذهب مع العلاء في ذي القعدة سنة ٨ هجرية..

وقد تحدث بعض المؤرخين عن ما قيل من ردة أهل البحرين، وقيام عبد القيس بمقاتلتهم إلى أن ردوهم بقيادة العلاء الحضرمي.. (ونحن نقول هذا مع تأملنا في حدود موضوع الردة والدعوة إلى النظر التاريخي التحقيقي في أحداثها..).وتقاتل العلاء ومن معه من عبد القيس بعد أن عبر من القطيف إلى تاروت ومنها إلى دارين، واصطدموا بالحطم بن ضبيعة قائد الجيوش المخالفة فهزموهم.. وكذلك الحال في الأحساء في منطقة جواثا..

بقي الوضع هكذا إلى سنة ٢٠ هجرية، حيث توفي العلاء فولى الخليفة الثاني قدامة بن مظعون[٢] على الجباية، وأبا هريرة على

---

(١) وقيل أن سبب التسمية راجع إلى أنه كان لعبد القيس حصن بهذا الاسم فسمي المسجد باسم جواثا.

(٢) السنن الكبرى - البيهقي ج ٨ ص ٣١٥: أن عمر رضي الله عنه استعمل قدامة بن مظعون على البحرين وهو خال حفصة و عبد الله بن عمر فقدم الجارود سيد عبد القيس على عمر فقال يا أمير المؤمنين إن قدامة شرب فسكر وأني رأيت حدا من حدود الله حقا على أن أرفعه إليك فقال عمر ﷺ من شهد معك قال أبو هريرة فدعا أبا هريرة فقال بم تشهد فقال لم أره شرب ولكني رأيته سكران يقئ فقال عمر ﷺ لقد تنطعت في الشهادة قال ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم فقام إليه الجارود فقال أقم على هذا كتاب الله فقال عمر ﷺ أخصم أنت أم شهيد قال بل شهيد قال فقد أديت الشهادة فصمت الجارود حتى غدا على عمر فقال أقم على هذا حد الله فقال عمر ﷺ ما أراك إلا خصما وما شهد معك إلا رجل فقال الجارود إني أنشدك الله فقال عمر لتمسكن لسانك أو لأسوءنك فقال أبو هريرة إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فاسألها وهى امرأة قدامة فأرسل عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها فأقامت الشهادة على زوجها فقال عمر لقدامة إني حادك فقال لو شربت كما يقولون ما كان لكم تجلدوني فقال عمر ﷺ لم قال قدامة قال الله عز وجل

الأحداث فعزل الأول وحده بعد أن ثبت عليه شرب الخمر (وفي هذا دليل على بطلان نظرية عدالة جميع الصحابة وأنهم فوق مستوى الوثاقة، خصوصا أنه لم يحتج قدامة في درء الحد عنه بذلك) وضرب الثاني بالدرة حتى أدمى ظهره، وصادر منه مبلغا كبيرا من المال، قيل إنه عشرة آلاف[١]، وقيل غيره.

وفي زمان أمير المؤمنين عليه السلام كان الوالي عليها عمر بن أبي سلمة المعروف بولائه لأمير المؤمنين.إلى أن استدعاه الإمام لقتال أهل صفين وكتب له في ذلك رسالة جاء فيها (فقد أردت المسير إلى ظلمة أهل الشام وأحببت أن تشهد معي فإنك ممن أستظهر به على جهاد العدو وإقامة أمر الدين إن شاء الله..)[٢].

ومن الطبيعي أن يكون عمر بن عبد الأسد (ابن أبي سلمة) قد ناصح إمامه في تبليغ رسالته وبيان ما ينبغي على أهل المنطقة فعله من ولاء أمير المؤمنين، كيف لا وأمه أم سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، التي كان موقفها في غاية الانسجام مع أمير المؤمنين عليه السلام كما يظهر من تتبع أخبارها[٣].

ناصَر العبديون أمير المؤمنين عليه السلام في مواقفه المختلفة، وبرز منهم العديد من أنصاره[٤]، فمنهم: - جويرية بن مسهر العبدي من ثقات أمير المؤمنين وصُلِب أيام معاوية على الولاية، صعصعة بن صوحان (يقول فيه الإمام: إني ما علمتك إلا خفيف المؤونة كثير المعونة، وقال

{لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ} الآية قال عمر رضي الله عنه أخطأت التأويل إن اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله عليك..

(١) أضواء على السنة المحمدية / الشيخ محمود أبو رية.

(٢) نهج البلاغة رقم ٤٢.

(٣) يراجع كتاب (نساء حول أهل البيت ج ١) للمؤلف.

(٤) وصل الأمر إلى درجة أنه إذا خالف أحدهم ولاء أمير المؤمنين علي عليه السلام كان يشار إليه ويعرف كما تتبين النقطة السوداء في القطيفة البيضاء، مثلما ذكر ابن الأثير في الكامل أن (صحار بن عباس (أو عياش) العبدي كان مخالفا لقومه على حب علي) وكذلك قال ابن دريد في الاشتقاق . وقال الثقفي في الغارات: عند الحديث عنه: وكان عثمانيا وكانت عبد القيس تتشيع فخالفها !

فيه الصادق عليه السلام: ما كان يعرف حق أمير المؤمنين إلا صعصعة وأصحابه)، وإخوانه: سيحان بن صوحان، وزيد بن صوحان ومنهم حكيم بن جبلة العبدي[1]، والمثنى بن مخربة العبدي رئيس ثوار البصرة على عثمان.وذريح بن عباد العبدي، ورشيد الهجري، وعمرو بن مرجوم العبدي الذي كان قد قدم ضمن وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان مع علي في مواقفه وجاء لأمير المؤمنين في يوم الجمل مع أربعة آلاف، ومنهم عبد الله بن جرير العبدي.. وغيرهم.

وهنا يلاحظ أن عددا غير قليل من بني عبد القيس قد انتقلوا إلى الكوفة بعد تمصيرها وخصوصا بعدما سكنها أمير المؤمنين عليه السلام والبصرة بعد حرب الجمل، ولذلك نسب العبديون الذي انتقلوا بنسبة الكوفي والبصري فيقال العبدي الكوفي أو البصري، وأحيانا كانت النسبة إلى البلد هذا تغلب على النسبة إلى القبيلة.

وتلاحظ نقطة أخرى أيضا وهي أن هؤلاء لما استقروا في تلك المناطق، صار غير العرب يوالونهم ويتعاقدون معهم، ولذلك سوف نجد فيما بعد أن قسما من هؤلاء يوصفون بأنهم موالي العبديين.

في أصحاب الحسين عليه السلام في كربلاء يعد المؤرخون عشرة[2] قد استشهدوا من العبديين: أدهم بن أمية العبدي كان من شيعة البصرة،وحضر أيضا في منزل (مارية بنت منقذ)، استشهد يوم

---

(١) قتل أصحابُ الجمل في أول أمرهم ـ لما احتلوا البصرة ـ ثلاثمائة من رجال عبد القيس من أصحاب حكيم بن جبلة.. وقيل إنهم آمنوهم أول الأمر ثم قتلوهم !! وأبّن أمير المؤمنين حكيما وأصحابه بقوله: إنه أتاني خبر متفظع ونبأ جليل: أن طلحة والزبير وردا البصرة فوثبا على عاملي فضرباه ضربا مبرحا وترك لا يدرى أحي هو أم ميت، وقتلا العبد الصالح حكيم بن جبلة في عدة من رجال المسلمين الصالحين لقوا الله موفين ببيعتهم ماضين على حقهم، وقتلا السبابجة خزان بيت المال الذي للمسلمين، قتلوهم صبرا، وقتلوا عذرا..

(٢) في الزيارة التي فيها أسماء الشهداء (يراجع قضايا النهضة الحسينية ج ١للمؤلف) ذكر من شهداء العبديين ٦ شهداء، والملاحظ أنهم من غير ألقاب مثل عامر بن مسلم، ومولاه، وسيف بن مالك، وفي بعضها الآخر بلقب القيسي كما هو في يزيد بن ثبيت (العبدي) القيسي وابناه عبد الله وعبيد الله.

العاشر من محرم في الهجوم الأول[١] وسيف بن مالك العبدي، سالم مولى عامر بن مسلم العبدي، عبدالرحمن بن عبدالله بن يزيد العبدي، عبدالله بن يزيد العبدي، زهير بن سليم العبدي الأزدي، عامر بن مسلم العبدي، يزيد بن ثبيت العبدي، عبد الله وعبيد الله ابنا يزيد ابن ثبيت العبدي.

وبعد كربلاء وجدنا المثنى بن مخربة العبدي يكون له دور مهم في حركة التوابين، ويحشد أهل البصرة للمشاركة فيها وكان مبرزا بينهم حيث قاد ثلاثمائة رجل منهم واشترك مع التوابين في القتال، لكنه لم يستشهد، ثم كان مع المختار الثقفي في سنة ٦٦هـ فقد وكله ليدعو الناس إليه فدخلها وبنى مسجداً اجتمع فيه مؤيدوه وبدأ الدعوة للمختار.

في أيام الصادقين عليهما السلام كان من العبديين محدثون وشعراء مثل سفيان بن مصعب ويحيى بن بلال وغيرهما وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في سفيان: «علّموا أولادكم شعر العبدي، فإنه على دين الله». وله في المناظرات شعر، وأمره الصادق عليه السلام فقال: قل شعرا تنوح به النساء.. وقد أنشد أمام الصادق عليه السلام قصيدته في رثاء الحسين عليه السلام التي مطلعها: فَروُ جودي بدمعك المسكوب. فارتفعت أصوات النساء بالبكاء.

وأما الرواة فيكثر عددهم حتى لو أردنا الاستقصاء لخرجنا عن مجال الحديث فمنهم، ربعي بن عبد الله[٢]، ومسعدة بن صدقة، وعروة بن جميع، وأبو الصباح الكناني إبراهيم بن نعيم، وعلي بن الحسين.

---

(١) وسيلة الدارين في أنصار الحسين:٩٩.

(٢) الثقة ورد اسمه في أسانيد ٧٩ رواية، ومسعدة بن صدقة الثقة من أصحاب الصادق عليه السلام، وعروة بن جميع الذي روى عنه يونس بن عبد الرحمن وعثمان بن عيسى من أصحاب الإجماع، وأبو الصباح الكناني إبراهيم بن نعيم الذي روي أن الإمام الصادق عليه السلام كان يلقبه بالميزان لوثاقته، وعلي بن الحسين من أصحاب الصادق.

ومنهم بالولاء عبد الصمد بن بشير[١]، وعبد الله بن أبي يعفور والحسين بن حماد بن ميمون العبدي، والمثنى بن عبد السلام العبدي، وأبان بن أبي عياش فيروز.. وغيرهم.

في أيام الدولة الأموية

استمروا في ولائهم حتى جاءت الدولة الأموية وفي أيامها كانوا بين المطرقة والسندان، وبين نارين نار الخوارج الذين نشطوا في سواحل عُمان وجنوب البصرة حيث كان هؤلاء يعتقدون بكفر أمير المؤمنين علي عليه السلام، وأن هؤلاء الذين يوالون عليا يوالون رجلا كافرا فلا بد من قتالهم.

هذا من جهة ومن جهة أخرى نار الأمويين الذين كانوا حانقين على أهل المنطقة خصوصا وإنهم لم يبايعوا الأمويين ولم يسلموا لهم بالإتباع.ويظهر أن المنطقة في العهد الأموي تحولت إلى مكان يلجأ إليه المعارضون للحكم الأموي فيجدون فيه الجو المنسجم مع توجهاتهم،وخصوصا أنها كانت ذات طرفين، فالبحرين كانت تمثل الموئل الخلفي لمن يفر من القطيف، وبالعكس.. مما حدا بعبد الملك بن مروان أن يبعث بالمبلغين والدعائيين فلما لم ينجحوا جرد حملة للعقوبة فقامت تلك الفئات العسكرية بتخريب في المنطقة، وبطمر للعيون التي كانت تروي مزارعها، وبالذات عين تسمى عين السيجور في البحرين.. واستغل حربه مع الخوارج لتصفية حساباته مع الشيعة.. الذين كانوا بين فكي الأمويين والخوارج.

أيام العباسيين أيضا كانت الأمور تراوح واستمرت الأمور

---

(١) عبد الصمد بن بشير الثقة الذي ورد ذكره في أسانيد ٣٥ رواية، وعبد الله بن أبي يعفور الثقة الجليل في الأصحاب والحسين بن حماد بن ميمون العبدي الذي ورد اسمه في أسانيد ٢٢ رواية ، والمثنى بن عبد السلام العبدي الذي أثنى عليه الكشي ، وأبان بن أبي عياش فيروز الذي يروي كتاب سليم وقد نقل بعضهم عن ابن قتيبة في المعارف: أن عبد القيس كانت تفتخر بن بين مواليها أبان بن أبي عياش. وهو وإن ضعف في بعض كلمات أصحابنا إلا أن بعض المحققين أرجع ذلك إلى كلمات مخالفي أهل البيت، وكونه من رواة الأحاديث التي لا يتحملها البعض منهم، وللتفصيل يراجع كتاب سليم بن قيس بتحقيق: محمد باقر الانصاري الزنجاني.

هكذا، بحيث يقوم خليفة ويسقط آخر، وكل شيء يتغير غير شيء واحد ظل ثابتا هو خط الولاء لأمير المؤمنين.. وشهدت بعض الثورات ضد العباسيين ولكنها كانت تخمد..

وكانت محاولات من قِبَل صاحب الزنج للسيطرة على المنطقة واستقطاب أهلها باعتبارهم غير منسجمين مع الخلافة العباسية، لكن صدور توقيع عن الإمام الهادي عليه السلام بشأنه وأن «صاحب الزنج ليس منا أهل البيت»[1] جعل هذه المحاولات عقيمة.

وحصل في المنطقة في وقت متأخر حوالي سنة ٢٨٥ هـ مجيء القرامطة إلى المنطقة واستفحل وجودهم، واحتلوا القطيف، وتوجهوا لاحتلال الأحساء وقتلوا جمعا كبيرا من عبد القيس بعد قتل زعمائهم.. والعجيب أن هناك من الجهلة والطائفيين من يدّعي بأن القرامطة هم من الشيعة مع أنهم عندما وصلوا إلى المنطقة، فتكوا بأهلها فتكا ذريعا حتى أحرقوا بعض زعمائها أحياء.وإلى هذا المعنى يشير الشاعر علي بن المقرب العيوني[2] في قصيدته التي بين فيها

---

(١) هناك خلاف في انتساب علي بن محمد المعروف بصاحب الزنج، فالأكثر على أنه ليس من بني هاشم، وقد كان رفع هذا الشعار من أجل جلب الناس لتحركه.. وكلمة الإمام الهادي عليه السلام شاملة للجهتين، فهي - على فرض صدورها - تنفي النسب، وتنفي تطابق المنهج، مثل ليس منا من دعا إلى عصبية. وليس منا من غشنا..

(٢) ترجمه الشيخ البلادي البحراني رحمه الله في أنوار البدرين بقوله: الشيخ علي بن مقرب فمن أدبائها البلغاء وأمرائها النبلاء الأمير الأديب الأريب المهذب الشيخ علي بن مقرب الأحسائي ينتهي نسبه إلى عبد الله بن علي بن إبراهيم العيوني الذي أزال دولة القرامطة من ربيعة وكان هذا الشيخ أديبا فاضلا ذكيا أبيا شاعرا مصقعا من شعراء أهل البيت عليهم السلام ومادحيهم المتجاهرين ذا النفس الأبية والأخلاق المرضية والشيم الرضية وقد كشف جامع ديوانه وشارحه كثيرا من أحواله بتفصيله وإجماله وهو مطبوع الآن وإن كان الظاهر أنه من المخالفين له في المذهب ولهذا حذف من أشعاره المراثي والمدائح وجرد منها ما هو الأولى والأحرى بالذكر والصالح وتحتمل التقية في حقه وقد وقفت له على مراثي كثيرة على الحسين عليه السلام سبط المصطفى منها المربعة في نظم مقتل الحسين عليه السلام ومنها قصائد من جملتها المشهورة التي أولها:

من أي خطب فادح نتألم ولأي مرزئة ننوح ونلطم

إلى أن يقول في آخرها:

بعض ما ارتكبه القرامطة بحق عبد القيس ـ شيعة أهل البيت عليهم السلام ـ:

وحرّقوا عبد قيس في ديارهمُ

وصيروا الغرّ من ساداتهم حمما

فكان العيونيون وهم من شيعة أهل البيت عليهم السلام من ٤٦٠ هـ إلى حوالي ٢٠٠ سنة بعد ذلك وهم الذين قاوموا القرامطة واستطاعوا إخراجهم بعد جولات عنيفة من القتال المستمر[1] لمدة سبع سنوات وقد

قمنا بسنتكم وحطنا دينكم بالسيف لا نالوا ولا نتبرم

وعلى المنابر صرحت خطباؤنا جهرا بكم وأنوف قوم ترغم

لا تسلموني يوم لا متأخر لي عن جزا عملي ولا متقدم

وفي نظمه الحماسة والأمثال الجيدة مع البلاغة المستحسنة وقد أصابته من بني عمه نكبات أوجبت له تجشم الغربات وفي ديباجة شرح ديوانه شرح لما لقيه في زمانه من أراده فهو مبذول.

وفي هامش الكتاب المذكور: ومن جملة قصائده قدس سره في رثاء الحسين عليه السلام قصيدة عينية أولها:

يا باكيا لدمنة و مربع ابك على آل النبي اللوذعي

ويقول في آخرها:

يا آل طه أنتم و سيلتي عند إلهي وإليكم مفزعي

وإن منعتم من تولى غيركم أن يرد الحوض غدا لم امنع

إليكم نفثة مصدور أتت من مفحم للشعراء مصقع

مقربي عربي طبعه ونجره وليس بالمبتدع

ينمى من البيت العيوني إلى أجل بيت في العلا وأرفع

عليكم صلى إلهي وسقى أجداثكم بكل غيث ممرع

(١) ذكر الشيخ علي البلادي البحراني في أنوار البدرين ص ٣٩٣: ما يلي:(أقول): ولم تزل القرامطة في دولتهم ومنكراتهم حتى أباد الله دولتهم وأخمد صولتهم بظهور الأمير عبد الله بن علي العيوني الأحسائي آل إبراهيم من ربيعة جد

سجل الشاعر العيوني علي بن المقرب هذا في قصيدته المذكورة حيث قال:

سل القرامط من شظّى جماجمهم

فلقا وغادرهم بعد العلا خدما

وحكموا المنطقة طيلة هذه الفترة.

ولكي يتبين لك مدى تغلغل منهج أهل البيت عليهم السلام واستحكامه في المنطقة، ننقل لك ما ذكره ابن بطوطة في كتابه المعروف (رحلة ابن بطوطة) ففيه يقول: «ثم سافرنا إلى مدينة القطيف كأنه تصغير قطف، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية[1] غلاة!! يظهرون الرفض جهارا ولا يتقون أحدا ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين أشهد أن عليا ولي الله، ويزيد

الأمير علي بن مقرب الشاعر الأديب فبقي يراوحهم ويغاديهم بالحرب مدة سبع سنوات وهو في أربعمائة رجل وربما تزيد قليلا حتى ذهبت أيامهم وعفت رسومهم وأعوامهم ومن جملة ما اتفق في إدبار أمرهم وقطع شرهم أن أبا البهلول العوام بن محمد بن الزجاج الذي أحدث قرية العوامية من بني عبد القيس تغلب على جزيرة أوال وانتزعها من أيديهم وطرد عاملهم عنها فلما سمعوا الخبر حشدوا الجنود الكثيرة من الأعراب وغيرهم وأتوا بهم إلى القطيف وكانت لهم فجهزوا ثلثمائة سفينة مملوءة عساكر وعليهم أمير من جهتهم فلما توسطوا البحر بين البحرين والقطيف في الموضع المعروف إلى الآن بكسكوس عصفت بهم ريح عظيمة فأغرقتهم جميعا إلى أن صار ما ذكرناه من قطع أدبارهم وقلع آثارهم وقد أشار إلى ذلك الأديب الشاعر المهذب علي بن مقرب في بعض قصائده بقوله:

سل القرامط من شظى جماجمهم طرا وغادرهم بعد العلا خدما

وما بنوا مسجدا لله نعلمه بل كلما وجدوه قائما هدما

وحرقوا عبد قيس في منازلها وغادروا الغر من ساداتها حمما

(١) ما أشبه الليلة بالبارحة.. هذا هو الخطاب الطائفي الذي لا يزال عند قسم من الناس.. لماذا هم غلاة ؟ لأنهم يظهرون عقائدهم ؟ ويقولون أشهد أن عليا ولي الله ؟ أو أنهم يقولون حي على خير العمل !! وورطة شيعة أهل البيت ورطة فإن كتموا عقيدتهم وأخفوا شعائرهم اتهموا بأنهم منافقون وبأنهم يكيدون للدين.. إلخ، وإن أظهروا عقيدتهم وأعلنوا شعائرهم صاروا غلاة ورفضة !! فماذا يصنعون؟

بعد الحيعلتين (حي على الصلاة حي على الفلاح) حي على خير العمل...

ثم يسترسل ويذكر عن مدينة الأحساء، ويؤكد على أن سكانها عرب (لا كما يشوش البعض فيربط بين التشيع وبين الانتماء غير العربي) وأنهم من عبد القيس.. فيقول:

ثم سافرنا منها إلى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا وهي التي يُضرب المثل بها فيقال كجالب التمر إلى هجر، وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها، ومنه يعلفون دوابهم، وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى»[1].

وأنت تلاحظ أن هذه الشعائر المعروفة عن شيعة أهل البيت، كانت سائدة في المنطقة منذ ما يقارب السبعة قرون من الزمان.

ونظرا لكون المنطقة ذات خيرات كثيرة، فقد أُغري بها الطامعون من مختلف الآفاق فجاء البرتغاليون واحتلوا المنطقة، ولهذا ترون أن قسما من الآثار الباقية تعود لهؤلاء الغزاة، وهنا موقف يبين منهاج شيعة أهل البيت عليهم السلام في مقاومة التحديات التي تواجههم، فإن المنطقة لما احتُلّت من قِبَل البرتغاليين، قام أهل المنطقة بالاتصال بالأتراك العثمانيين ولم يمنع الخلاف المذهبي الموجود (باعتبار كون الأتراك حنفيي المذهب) من ذلك التواصل والتعاون على طرد المستعمر الأجنبي الكافر، وبالفعل كان نتيجة ذلك أن أُخرج البرتغاليون من المنطقة، مع أنه كان يمكن لأهل المنطقة أن يضمنوا لأنفسهم حماية قوة كبرى تصد عنهم غارات البدو وأعداء المحيط.ولكنهم ضمن ثوابتهم الدينية رأوا أن عليهم أن يتحالفوا مع الأتراك المسلمين ضد الكفار الأجانب، وسوف يكررها أهل المنطقة في وقت لاحق كما سيأتي.وبقي الأتراك فيها إلى حوالي سنة ١٠٨٠ هـ وهنا تُذكر نقطة إيجابية عن الأتراك العثمانيين أنهم لم يكونوا يتدخلون في الأمور المذهبية كما نُقل عنهم.

---

(١) رحلة ابن بطوطة / ٢٨٠ طبعة دار صادر.

استمر الأتراك في حكم المنطقة مدة ١٢٠ سنة، ثم ضعف أمرهم، فاستطاع بنو خالد السيطرة على المنطقة، وأيضا بقوا يحكمونها مدة ١٢٠ سنة تقريبا، وقد تداخلوا في هذه الفترة مع الأهالي مما جعلهم يتأثرون بطريقة حياتهم، وثقافتهم، وكان نتيجة ذلك التداخل الاجتماعي والتأثر الثقافي أن وجدنا قسما من بني خالد قد تأثروا بمذهب أهل البيت عليهم السلام، ولعل الناظر إلى العوائل والقبائل هنا يلحظ عددا من القبائل لم يكن التشيع فيها قبل ثلاثمائة سنة لكن بدأ فيها خلال هذه الفترة، فتشيعت قبائل بكاملها أو نسبة منها، ولا يزالون إلى يومنا هذا.

ويرجع سبب ذلك إلى القاعدة الاجتماعية في أن الفكر الصحيح أقوى من الآلة العسكرية، وهو نفس الأمر الذي جعل المغول يتأثرون بالإسلام ويسلمون مع أنهم جاؤوا فاتحين في الأصل - هذا مع الفارق بين المثالين ولكن الغرض هو الاستشهاد -. وهناك سبب آخر محتمل وهو أن الخوالد قد تعاملوا مع المنطقة بحالة منفتحة، دون أن يكون هناك شحن طائفي يُقصد منه فصل الفئات عن بعضها، ومنع التأثر والتأثير بينها! بخلاف ما هو موجود في أزمنة متأخرة.

غير أن الأمر لم يستمر لبني خالد، فعاد الأتراك مرة أخرى وسيطروا على المنطقة، وقد شهد عهدهم الجديد حالة من الانفتاح الثقافي والحرية، وحصل في وقت متأخر انتشار الحوزات والمدارس العلمية إلى حد أن المنطقة كان يوجد فيها عدد من المجتهدين، رجع الأهالي في التقليد إليهم وكان في البلاد حركة ثقافية وأدبية متميزة شهدت الكثير من التأليفات، ووجد فيها الكثير من الشعراء والأدباء مما يحتاج له إلى حديث خاص به. واستمر هذا الحال إلى سنة ١٣٣١هـ.

في سنة ١٣٣١ هـ دخلت المنطقة تحت حكم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود المؤسس.وهنا لا بد من تسجيل نقطة أشرنا إلى مثلها في ما سبق وهي تحكي عن الحالة الوطنية والدينية التي كان عليها أهل المنطقة وعلماؤها، فإنه يُنقل أن المنطقة التي كانت فيها حامية تركية ضعيفة، أُريد استغلال أمرها من قِبَل البريطانيين فأرسلوا بارجة حربية رابطت على الموانئ وعُرِضت الحماية على أهل

المنطقة، فما كان من علمائها إلا أن وقفوا الموقف الديني الطبيعي في مثل هذه الموارد عند الاختيار بين من هو مسلم ومن هو كافر، فكان أن قام علماء القطيف ونواحيها بتسليمها إلى مندوب الملك عبد العزيز من دون قتال وكذا كان الحال في الأحساء حيث قام العلماء بتسليم البلاد ضمن إطار حفظ الحقوق والحريات الدينية.

ونحن نسأل الله أن يحفظ بلادنا ويرفعها ويعزها، وأن يقمع أعداءها ومن يريدون بها السوء ويكيدون لها إنه على كل شيء قدير.

من مشاكل النهوض في مجتمعنا الشيعي

مقدمة في المنهج القرآني
في معالجة المشاكل الاجتماعية

يمتلك التشيع حسب الكثير من المفكرين مؤهلات النجاح والتفوق والتحليق والانطلاق[١]، غير أننا نجد بعض المجتمعات التابعة له، قد ابتليت بمعيقات تجعله غير قادر على الانطلاق والتحليق.فما هي هذه المشكلات التي تعيقه؟وما العوامل التي تمنعه من الانطلاق؟

ونقدم بمقدمة من نقطتين:

النقطة الأولى: المجتمعات البشرية تحتوي على مشاكل متشابهة في الجملة، لكن تختص بعض المجتمعات بمشاكل خاصة بها، بل أحيانا نفس المشكلة المشتركة في مجتمعين يكون لها عوامل مختلفة، فعلى سيل المثال: البطالة ليست مشكلة خاصة وإنما هي مشكلة عامة فهي موجودة في أكثر المجتمعات في هذا الزمان: المتقدمة منها والمجتمعات النامية، برغم اختلاف الأسباب. فقد تكون أسباب البطالة في البلاد المتقدمة مكننة الإنتاج والاعتماد على الآلات والكمبيوتر، بينما هي في المجتمعات النامية عدم وجود الفرص الكافية أو سوء الإدارة للثروة.. وهكذا فإنه برغم أن المشكلة واحدة إلا أن الأسباب مختلفة.

ولهذا لا بد من النظر إلى المشكلة ضمن إطارها الخاص في المجتمع المعين الذي يراد البحث عنه.

النقطة الثانية: عندما نتحدث عن المشاكل لابد أن نفكر في الجذور و المناشئ و الأسباب فالكثير من الناس يلاحظون الظواهر ويقلقون من الآثار.مثلا: يرون شابا قد أخطأ في طريق الاستقامة

---

(١) وقد تحدثنا في وقت سابق عن عوامل قوة هذا المذهب، وما يفترض من تميز المجتمعات التابعة له بناء عليها.

فيقوم بأفعال خارجة عن العرف الديني، كثير من الناس يقلقون من هذه المظاهر ولا يرتاحون لها وهذا قلق من الآثار ومن المفروض أن نفكر في جذر هذه المشكلة فلا بد أن نتساءل لماذا يتصرف هذا الشاب بتلك الطريقة وما الذي يدعوه إلى هذا السلوك ويدفعه إلى هذا التصرف؟.

وعلى سبيل المثال مجتمعنا التابع لأهل البيت عليهم السلام يمتلك من الإمكانيات الشيء الكثير ويحتوي على مقومات الانطلاق والتقدم، لنتساءل لماذا لم يتقدم؟ لماذا لم يرتقِ؟ إن مما يثير التساؤل أن ترى طائرة معدة للطيران بشكل كاملَ وقائدها موجود والمدرج معد ومهيأ والحاجة للانطلاق مُلِحَّة.. ومع ذلك لا تطير، لابد أن نتساءل لماذا لا تطير مع وجود كل مقومات الطيران والانطلاق؟ ومع انتفاء الموانع عنه.. ما الذي يمنعها من الطيران والتحليق؟ هل هناك شيء يثقلها؟.

إن هذا المجتمع يمتلك فكر أهل البيت عليهم السلام الذي هو أعظم تبلور لفكر الإسلام، ويمتلك من القدوات التاريخية ما يعادل الواحد منهم أمة كاملة، كما أنه يمتلك الحماس الديني المتفاعل في نفوس شبابه وشاباته، ولا يفتقد الإمكانات المادية اللازمة.. فلماذا يبقى رهين التخلف؟

لماذا نتعرض إلى هذه المشاكل؟

سوف يتضح أن هناك مناهج متعددة في التعامل مع المشاكل الاجتماعية وأن طريقة التعامل مع هذه المشاكل، تؤثر في أن يتحرك الملاحظ لحلها، وتغييرها أو أنه يتخذها مبررا للتقاعس، والكسل عن الدخول إلى الساحة الاجتماعية.

إن الغرض من التعرض إليها، كشفها وبيان شيء من أسبابها، والتفكير في حلول لها، كيلا تعيق المجتمع عن حركته، والعاملين عن نشاطهم..

أما مناهج التعامل مع تلك المشاكل، فيمكن لنا أن نذكر منها ما يلي:

المنهج الأول: التستر والإخفاء: يقول أصحاب هذا المنهج - والذين

يوجدون في أكثر البلاد الإسلامية على مستوى الدول أو المجتمعات والطوائف .: يجب التستر على المشاكل الحاصلة في المجتمع، وتجنب تداولها والحديث فيها، وذلك لأن الحديث عن هذه المشاكل والاعتراف بوجودها يضعف المجتمع.فلا بد من إبراز المجتمع أمام الآخرين على أنه قوي متماسك لا مدخل للمشاكل فيه، ولا يوجد فيه إلا كل خير..

وربما يعلل هؤلاء مثل هذا التوجه بأن مفاد آيات القرآن الكريم هو التستر على المشاكل وعدم إظهارها..كما يعتقد أصحاب هذا المنهج أن إظهار المشاكل عبر الحديث عنها يؤدي إلى أن يشمت العدو فينا.. بينما المفروض أن نري الأعداء قوة جبهتنا الداخلية وتماسكها.

ومن الواضح أن هذا المنهج غير صحيح، فإن إخفاء المشكلة والتستر عليها لا ينهيها، وهو أشبه بالإغماض عن المرض، لفترة من الزمان حتى إذا استفحل لم يكن ممكنا التستر عليه، ولاستفحاله لا يمكن علاجه أحيانا.

الطريف أن الكثير ممن يرون هذا المنهج، ويعملون به عندما تبدو المشكلة فاقعة أمامهم بكل قوتها يتساءلون: أين كانت هذه المشاكل ولماذا وصل مجتمعنا إلى هذا الحد! وجوابه أن المشاكل كانت موجودة، ولكن كان يتم التغاضي عنها، والتستر على وجودها، حتى وصلت حدا لا يمكن إخفاؤها معه!

المنهج الثاني:التهويل والتهريج السلبي: هناك قسم من الناس يعتمدون المبالغة والتهريج السلبي وتضخيم المشاكل، بنحو غير علمي، وإذا أردت أن تنظر إلى هذه الحالة فاسأل شخصا عن الأوضاع فإنه يجيبك بنظرة سلبية وسوداوية بالنسبة لكل شيء.فلا يوجد عنده في المجتمع شيء حسن، فالكبار جاهلون والشباب متهورون، والنساء متهتكات..والعلماء مصلحيون أو قاعدون، والتجار بخلاء وغير باذلين..وهكذا.

إنه لا يرى في المجتمع سوى بقع السواد، وإن لم تكن فهو يخلقها في ذهنه من خلال ملاحظات مبتسرة وسريعة لبعض المظاهر التي لا تشكل ظاهرة.

وهذا النهج مع الأسف يوجد في فئات كثيرة.والحقيقة أن له خلفية نفسية معينة، ولا يُتصور أن هذا المنهج يتبعه هؤلاء الناس مجانا ومن غير وعي، وإنما لأنه يصل في نهاية الأمر إلى تبرير الكسل والتقاعس عند نفس الشخص، بحجة أن العمل لا ينفع ما دام المجتمع وصل إلى هذه الحالة، وما دام من يُعتمد عليهم قد أصبحوا بهذا النحو.

وهذا المنهج غير صحيح لأنه يرى نصف الحقيقة أو ربعها والإخبار عنها كأنها الحقيقة كاملة، وربما اختلق أصحابه بعض الصور من غير واقع لها في المجتمع.

المنهج الثالث: منهج القرآن الكريم في معالجة المشاكل، ونعرض هنا إلى ذكر بعض ميزاته بنحو عاجل:

منهج منصف، فهو يسلط الضوء على كامل صورة المشهد، لكي يأخذ منها ما يعتبر به قارئ القرآن، ويتعظ به، فإذا كانت هناك صورة حسنة حتى من المخالفين للأمة الإسلامية فهو يذكرها ويعطي منهجا لأبناء المسلمين أن يكونوا منصفين مقسطين في التقييم والحكم حتى مع الأعداء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[1].

وإذا كانت هناك صور غير حسنة، ومشاكل موجودة لدى أبناء الأمة المسلمين فإنه لا يتأخر عن ذكرها، حتى لو قرأها غير المسلمين (وشمتوا بهم)!! فإن المهمة القصوى من ذكر تلك المشاكل أن ينتفع المسلمون بالتجارب، ويجتنبوا مواضع الخطأ، وهذا الهدف يهون عنده ما سواه.

منهج واقعي ينفذ إلى جذور المشكلة ولا يكتفي بعرض آثارها، فهو في أثناء حديثه عن تجربة المسلمين في صراعهم مع الكفار يقول:

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

(١) سورة المائدة آية ٨.

كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ } [١]..

ففي حوالي ثمانين واقعة انتصر فيها المسلمون على أعدائهم، لكنهم حين أعجبتهم كثرتهم وقلَّ توكلهم على الله كانت النتيجة أن انهزموا.فهنا يحذر من أساس المشكلة وهو الإعجاب بالكثرة.

وفي سورة آل عمران نجد الكثير من الآيات التي تتعرض إلى مشاكل المواجهة، والصفات السيئة التي توجد لدى بعض المسلمين وتُنتج الهزيمة والتأخر.يقول تعالى: { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ❖ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور } [٢].

وينفذ القرآن إلى بواطن النفوس لكي يكشفها على الملأ، فيقول: { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير } [٣]. { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً } [٤].

وهذا المنهج أشبه بمنهج الطبيب الذي يتعمق في فهم الداء، ويدقق

---

(١) سورة التوبة آية ٢٥.

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣)سورة آل عمران آية ١٦٥.

(٤)سورة النساء آية ٧٢.

في تشخيصه تدقيقا تاما ثم يصف الدواء بناء عليه، من دون أن يتستر عليه، ولا أن يبالغ في تضخيم آثاره، ويهوّل منه.ويخبر المريض (أو من يعنيه أمره) بحقيقة مرض المريض.

ولو نظرنا إلى كلام أهل البيت عليهم السلام لوجدناهم لا يفارقون هذا المنهج في معالجة المشاكل الاجتماعية.. فكثيرا ما تحدث أمير المؤمنين عليه السلام مع أصحابه مبينا لهم نقاط ضعفهم «ألا وإنه ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم حقي»[١]. فمجرد كون الإنسان على الحق لا يجعله منتصرا بالضرورة، فهاهم أهل الشام ليسوا على حق ولكن لديهم ميزة تجعلهم متفوقين وهي طاعتهم أميرهم بالرغم من أنه على الباطل.. «صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه. وصاحب أهل الشام يعصي الله ويطيعونه»[٢].

وعندما يتعجب البعض متسائلين عن سبب هزيمة جيش الإمام الحسن عليه السلام أمام معاوية، ولجوئه إلى المهادنة، يقول عليه السلام: «أما والله ما ثنانا عن قتال أهل الشام ذلة ولا قلة ولكن كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر، فشِيب (خُلط) السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع وكنتم تتوجهون معنا ودينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم الآن ودنياكم أمام دينكم وكنا لكم وكنتم لنا، وقد صرتم اليوم علينا»[٣]. فاختلاف الدوافع أدى إلى الهزيمة.

والإمام الحسين عليه السلام أيضا قد وضع الأمة في ذلك الوقت أمام مشكلتها وصرح لها بأن المشكلة هي أن «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون»[٤].

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ٩٧

(٢) نهج البلاغة ج/١ خطب الإمام علي عليه السلام ص ١٨٨.

(٣) بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج ٤٤ ص ٢١.

(٤) المصدر السابق ١٩٥.

تضخم الشعور بالمظلومية
لدى أبناء المجتمع وآثارها السلبية

وقع ظلم كبير على أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم على مدى الزمان وصفحات التاريخ خير شاهدا على ذلك وتفننت الدولة الأموية والعباسية بتلك الممارسات على الأئمة أولا وشيعتهم ثانيا ولم يقتصر الأمر على هاتين الدولتين وإنما استمر حتى الوقت الحاضر وإن اختلفت النسبة وتغيرت الأساليب.

من الناحية الرسمية كان معاوية بن أبي سفيان هو السابق إلى (تشريع) ذلك الظلم و (تقنينه) بحيث صدر في عهده عدد من المراسيم التي جعلت تلك الممارسات الظالمة سياسة متبعة، لذلك فقد منع عطاء كثير من الشيعة من بيت المال بل محى أسماءهم من الديوان[1].

---

(١) الدرجات الرفيعة- السيد علي ابن معصوم المدني ص ٥:

روى أبو الحسن على بن محمد بن أبي يوسف المدايني في كتاب (الأحداث) قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئا «من فضل أبى تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منير يلعنون عليا» ويبرؤن منه. ويقعون فيه وفى أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليها البصرة، وكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدى والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم من العراق، فلم يبق بها معروف منهم وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: أن لا يجيزوا لأحد من شيعة على عليه السلام وأهل بيته شهادة. وكتب إليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل بيته والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا إلى بكل ما يروى كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطايع، ويفيضه في العرب منهم والموالي فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجئ أحد بخبر مردود من الناس عاملا من عمال معاوية فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة إلا

وتضاعف الأمر في عهد العباسيين حتى لقد ترحم الناس على العهد الأموي لعنف ما لقوه أيام بني العباس ومن جاء بعدهم حتى قال قائلهم:

تاللّه ما فعلت أمية فيهم معشار ما فعلت بنو العباس

ولا تزال صور من المظلومية المستمرة، تتمثل في إقصاء مذهب أهل البيت عليهم السلام عن الحياة العامة والتنكر له، وإبعاد أتباعه عن المواقع

كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حينا ثم كتب إلى عماله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشى في كل مصر وفى كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبى تراب إلا واتونى بمناقض له في الصحابة، فان هذا أحب إلى وأقر لعيني وأدحض لحجة أبى تراب وشيعته، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله فقرئت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها وجد الناس في رواية ما يجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر وألقى إلى معلمي المكاتب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء اللّه تعالى، ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البينة انه يحب عليا «وأهل بيته فامحوه من الديوان واسقطوا عطاءه ورزقه وشفع ذلك بنسخة أخرى، من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة، حتى إن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقى إليه بسره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الإيمان الغليظة ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء القضاة والولاة، وكان أعظم ذلك بلاء القراء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها. ولم يزل كذلك حتى مات الحسين بن علي عليه السلام فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا خائف على دمه أو طريد في الأرض. ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام وولى عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة، وولى عليهم الحجاج بن يوسف فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والذين يبغضون عليا عليه السلام ويوالون أعداءه فأكثروا من الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم وأكثروا من الغض من علي عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنآن له حتى أن إنسانا» وقف للحجاج، ويقال انه جد الأصمعي عبد الملك بن قريب فصاح به: أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني عليا وإني فقير بائس وإنا إلى صلة الأمير محتاج فتضاحك له الحجاج وقال: للطف ما توسلت به وقد وليتك موضع كذا.

المهمة في بلادهم.. مما لا يخفى على المتأمل.بل وصل الأمر في حالات كثيرة إلى أن يكون التشيع وصمة تجعل صاحبها في ضيق في معيشته وعمله..

وبالرغم من أن المظالم التي وقعت على الأجيال المتأخرة لا تقاس - لقلّتها - بما وقع على الأجيال المتقدمة، إلا أن ذلك التاريخ المفعم بالعداء لشيعة أهل البيت، وهذا الحاضر المتجهم، صنع شعورا متضخما بالمظلومية والاضطهاد، وتحول - مع الأسف - إلى منهج تفكير، وطريقة، ورؤية لدى بعض أبناء مجتمعنا الشيعي، ووصل شعوره بالاضطهاد والمظلومية إلى حد أن البعض يفكر بأنه قدر مكتوب عليه ولا مجال للفكاك منه.وأصبح هذا الجيل يستحضر الماضي في الحاضر، ويعيد إنتاج هذا الشعور بالمظلومية.بل أصبح يألف هذا الشعور و (يأنس) به، بحيث لو افتقده لشعر بالوحشة!!

ومكمن الخطورة هو هنا، أي حين يتحول هذا الشعور إلى فلسفة في الحياة، وإلى رؤية لأحداثها وثقافة يُنظر بواسطتها..

فإذا سألت هؤلاء عن سر تأخرهم أجابوك أن الشيعة مكتوب عليهم ذلك!! والشاهد على هذا أنهم ومنذ الأيام الأولى لوفاة رسول الله i وإلى يومك هذا يُقاسون المعاناة!!

وينبغي أن نشير هنا إلى أن المظلومية أمر واقع لا ينكره منصف، سواء في التاريخ أو الحاضر، وعدم الشعور بها يعني إما عدم العلم بالتفاصيل، أو موت الشعور !! ولكن حديثنا في نقد حالة تضخم ذلك الشعور وتحوله إلى ثقافة معيقة، وفلسفة سوداء، تنتج آثارا سلبية في واقع شيعة أهل البيت كما سيأتي.

إن ما نريد الإشارة إليه أن هذا الشعور المتضخم غير صحيح، والثقافة في هذا المعنى ثقافة خاطئة لا يسندها القرآن و لا تُفهم من الروايات.

بل يُفهم من القرآن والروايات خلاف هذه الثقافة الذي يقرر أنه { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ }[1].

---

(١)سورة المنافقون آية ٨.

بينما جيل التخلف يقرر أن الذلة هي المفروضة على المؤمنين!!

القرآن يصرح بأنه {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[1] وهذه الثقافة تقول أن شيعة أهل البيت هم الأذلون و الأقلون وهم الذين كُتب عليهم قدر التخلف وسلب الحقوق! أليس هذا فهما مخالفا لصريح القرآن؟ والفرض أن هؤلاء باتباعهم لمنهج أهل البيت عليهم السلام هم من أوضح مصاديق المؤمنين.

الآثار السلبية للفكرة الخاطئة

من الأفكار الخاطئة ما يقتصر أثرها عند حدود (خطأ الفكرة) من دون أن يؤثر ذلك كثيرا على حياة صاحبها أو مسيرته، ومنها ما يولد آثارا خطيرة على سلوك الإنسان وحياته الاجتماعية، بل على المجتمع ككل.. وتضخم الشعور بالمظلومية هو من تلك الحالات، التي تنتج ثقافة خاطئة وممارسة ناقصة وتستتبع آثارا سيئة..

فما هي هذه الآثار:

أولا: اليأس: إذا ترسخت هذه الفكرة في شخص فانه سيبقى يراوح مكانه ولا يتقدم بعد أن تملكه الشعور بالمظلومية فأصبح اليأس هو الذي يسيطر عليه ويرى أن هذا الوضع كتبته الأقدار على جبينه لأنه موال لأهل البيت.ومثل ما قدر الله على الأئمة ذلك الحيف والظلم!! فإنه مقدر على شيعتهم أيضا فهل يستطيع أن يغير القدر!! هذا هو اليأس.. وإذا دب في مجتمع فاقرأ عليه الفاتحة.

فالإنسان إنما يتحرك في الحياة بطاقة الأمل وإذا نفذت هذه الطاقة فسوف يبقى الإنسان خاملا.. هذا على مستوى الفرد فكيف إذا عشش هذا الشعور في مجتمع بكامله؟.

في هذا المجال تجد البعض يفكر بهذا النحو المغلوط: ما الداعي إلى أن يتفوق في دراسته أو يبدع في عمله إذا كان سيواجه بالرفض أو التنكر من قِبل مسؤولية؟ ولماذا يجهد نفسه إذا كانت نتيجته الإبعاد كنتيجة غيره؟

---

(١)سورة آل عمران آية ١٣٩.

بينما الواقع يقدر أن قوانين الكسب والجزاء التي يتحدث عنها القرآن، هي القاعدة العامة في الحياة، { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ }[١]. و { إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ }[٢]. وهي وإن تأخرت على أثر وجود مانع هنا أو هناك، لكن هذه الموانع لا تتحول إلى قاعدة، ولا يكون الاستثناء هو القانون!! فإن الموانع مؤقتة، والقاعدة دائمة، الاستثناء له ظروف محدودة زمانا ومكانا والقانون مستمر ومضطرد.

ثانيا: الإحساس بالعجز: من آثار هذه المشكلة وهذا الشعور المتعاظم بالمظلومية: العجز والنقص والضعف.فالمرء الذي يعيش تلك الحالة، يعيش الضعف في داخله والعجز في نفسه، ويقابل الحياة والأمور بنفسية العاجز الضعيف أمامها.

إذا أراد أن يطالب بحقه الطبيعي فإنه يذهب وفي نفسه أنه لن يحصل عليه، فيضعف موقف ذاته، ويقضي على عوامل التأثير عنده، ويستسلم مع أول رفض يواجَه به، لأنه يرى نفسه حلقة من حلقات المظلومية التي بدأت مع أئمته ومع تاريخه!!

بل إنه بهذا الشعور المسيطر عليه يعين على نفسه، فينهزم أمام خصمه نفسيا.

ومثال ذلك ما نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سُئل عن السر الذي يجعله يهزم كل من يبرز إليه أجاب لأن غيري يعينني على نفسه، وعندما سئل كيف أجاب ما برزت إلى أحد إلا ويعتقد أني قاتله وأنا واثق أنني أقتله[٣].

---

(١)سورة الزلزلةآية ٧.

(٢)سورة الرعد آية ١١.

(٣) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام ج ٤ ص ٧٥: (وقيل له بأي شيء غلبت الأقران؟) فقال عليه السلام: ما لقيت رجلا إلا أعانني على نفسه (يؤمي بذلك إلى تمكن هيبته في القلوب)

...هذا الكلام يعني أن خصوم أمير المؤمنين يكونون منهزمين نفسيا فيضعفون.وفي المقابل توجد الثقة عند أمير المؤمنين والتوكل على الله فينتصر ويتغلب على خصومه ولذا يجب علينا أن لا ندع هذا الشعور يتسرب إلينا فننهزم نفسيا.

ثالثا: تبرير الفشل: مع تضخم الشعور بالمظلومية تتمهد حالة تُبرر التقاعس والكسل.. ويصبح ذلك بمثابة (الشماعة) التي يُعلق عليها الكثيرون فشلهم، ويُرجعون إليها تراجعهم.فهم بدلا من أن يتوجهوا إلى نقاط الضعف عندهم، مثلما هي طريقة القرآن حين يقوم بتوجيه اللوم إلى ذات الإنسان قائلا: { بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ❖ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَه } [1].ويقول: { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [2].

فإن هؤلاء بدلا من ذلك، يقومون بلوم (الآخرين) الذين هم السبب في فشلهم، وتراجعهم!! ففي المدرسة بعض الطلاب يقصرون في مذاكرتهم، ويغيبون في دروسهم، ويلعبون أيام امتحاناتهم حتى إذا جاء الامتحان، وفشلوا فيه، رموا القضية على المدرس الطائفي، أو المدير المعادي لهم أو غير ذلك من التبريرات التي يعلمون هم قبل غيرهم أنها غير صحيحة!!

وهكذا بدلا من أن يفكر التاجر في التبكير لعمله والتفكير لنشاطه التجاري يظل نائما إلى فترات متأخرة، حتى إذا ضاعت عليه الفرص، وتوقف نمو تجارته أنحى باللائمة على الآخرين!!

ونحن لا نريد أن ننفي الأمر بالجملة، فهو حاصل في بعض الحالات، ولكن الكثير منها ليس كذلك ولكن التظلم الزائد عن الحد، وتضخم الشعور بالمظلومية، هو في مثل هذه الحالة غير صحيح.

---

(١)سورة القيامة آية ١٤ـ ١٥.

(٢)سورة آل عمران آية ١٦٥.

إن الظلم الذي وقع على أهل البيت والشيعة السابقين أكثر بكثير من الظلم الذي يقع على الشيعة في العالم اليوم، ولكن تضخم الشعور بالمظلومية عندنا أكثر منهم بكثير بل على العكس هم حولوا ذلك الشعور بالمظالم إلى إنجازات بينما نحن أصبحنا نكرس هذا الشعور لكي نجعله تبريرا.

وينبغي على الإنسان أن يضع هذه المشكلة في حدودها فتعرض الشيعة للظلم طوال تاريخهم صحيح ولكن هل الشيعة وحدهم تعرضوا إلى الظلم؟

الفلسطينيون ألم يتعرضوا - ولا يزالون - إلى ظلم؟ والأكراد ألم يتعرضوا إلى ظلم؟ والسود في أمريكا وغيرهم..

إذا تعرض إنسان إلى مجموعة من المضايقات أو الظلم فلا ينبغي أن يجعلها حالة تبريرية للوضع السيئ الذي هو فيه فيؤثر ذلك سلبا في ثقافته وفي سلوكه وفي عمله وسائر نشاطاته في المجتمع.

كيف نحول هذا الشعور إلى قوة دافعة؟

إن من المهم مع وجود هذا الشعور أن يتحول إلى قوة دافعة، لتغيير وضع المظلومية القائم، إلى وضع متعادل منتج.. وذلك عبر ما يلي:

١ـ العلم بأن جزءا من المظلومية والاضطهاد الذي تتعرض له الشعوب هو بسبب الضعف سواء العلمي أو الاقتصادي أو غيره، فإذا قام هذا المجتمع ببناء القوة الذاتية العلمية والعملية فإنه لا يمكن لأحد أن يستضعفه.وإذا كان الأمر هكذا فيجب أن يعمل.مثلما قال بعضهم: ليست إسرائيل قوية وإنما قوتها بضعفنا.

٢ـ نشر ثقافة الإنجاز.والمكاسب التي تحققت وتتحقق.فإنه يوجد في المجتمع نماذج كثيرة جدا وأمثلة عديدة للنجاح والتفوق، سواء في الميادين العلمية، أو العملية، وقد حصلوا على درجات عالية، سمعت من أحد الإخوة وهو يتحدث عن صديق له عنده إحدى عشر براءة اختراع لأجهزة،ويوجد أشخاص حياتهم قصة نجاح وتفوق، فمن الضروري أن تنشر هذه الثقافة، وهذه النماذج حتى يتبين أن معزوفة

الوتر الحزين المبالغ فيه، استثناءٌ.قال تعالى: { وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى }[١].

٣- تنمية الشعور بالتحدي للظروف القائمة: فإن الاستجابة للتحدي ومقاومته هي التي تصنع الحضارات، وتنمي المجتمعات، ولقد بنى أرنولد توينبي هذه النظرية من خلال ملاحظته لكثير من المجتمعات البشرية، وأن المجتمع الذي لا يتعرض لتحدٍ، ينتهي بالتدريج، بينما التحديات التي تواجهها المجتمعات، وتستجيب لها بمقدار من الإبداع والصمود، تصنع لها النصر.

مع وجود هذه المظالم التاريخية إلا أن الوضع الشيعي بقي متحديا وهذا يعني أن التحدي للظروف يصنع الانتصارات.

خذ مثال الشعب الفلسطيني فإن هذا الشعب يتحدى ظروف الظلم والقهر والتجهيل التي فرضت عليه، ويقاومها، وسينتصر بإذن الله، ومع هذا التحدي ليس غريبا أن نجد أن نسبة[٢] حملة الشهادات العليا من الفلسطينيين أعلى من نسبتها لدى الإسرائيليين، مع توفر كافة الظروف المساعدة لدى هؤلاء، وانعدامها لدى أولئك.

وأما الحديث عن مظلومية أهل البيت عليهم السلام فهو أكثر دلالة على خطأ تضخم المظلومية والشعور بها، فإنه مع تسليمنا بالمظلومية التي حلت على أهل البيت عليهم السلام - وغيرُها لا يقاس بها لعظمتها - إلا أننا لو لاحظنا الإنجازات التي حققوها، والأهداف التي تتبعوها، في مقابل المظلومية نجد أن الإنجازات أضعاف تلك المظلومية التي حلت عليهم.لقد كان غرض الظالمين لأهل البيت أن لا يصرخ بالشهادتين وقت الأذان مناد، وأن لا يعلو ذكر محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المنائر والمنابر، ولقد تحمل الأئمة ما تحملوا من أجل أن تبقى الشهادتان، ويعلو نداء الدين.. وقد حصل ما أرادوه، وتحقق الذي قصدوه.

---

(١)سورة النجم آية ٣٩.

(٢) ذكرت بعض الإحصائيات أنه من كل ألف شخص يوجد ١٨ من حملة الشهادات العليا من الفلسطينيين في مقابل ١٤ لكل إسرائيلي.ويعد الفلسطينيون من أوائل الذين أسسوا الجامعات الأهلية مثل جامعة النجاح وبيرزيت..

وها نحن نرى النتيجة أن الذي انتصر وحقق إنجازاته و أهدافه هم الأئمة دون أعدائهم.

لقد صدق الشاعر في هذا المعنى حينما قال:

ظنـوا بـأن قتـل الحـسين يزيـدُهم

لكنما قتل الحسينُ يزيدا

المثالية (غير الواقعية)
في العمل الديني والاجتماعي

قال تعالى: { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[1].

المواصفات التي اشترطها شيعة أهل البيت عليهم السلام في من يتولى زمام الأمور كانت عالية جدا، وهي لا تتناسب إلا مع المعصومين عليهم السلام، وربما كان ذلك ضروريا لوقف حالة الانهيار في المقاييس والتي بدأت في الأمة، ونتج عنها أن صار من يحمل النسب الأموي أو العباسي، ويكون ابنا للحاكم السابق أو أخا، فهو مؤهل لكي يكون خليفة النبي، وأمير المؤمنين!!

ولعلك تدرك معنى كلام الإمام الحسين عليه السلام «وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد»..

لقد كان موقف أهل البيت عليهم السلام حازما في ما يرتبط بالقادة والمترئسين، فإن كان صالحا ومن (أولي الأمر) فلا بد من طاعته وإتباعه، بل لقد قرن الله طاعته، بطاعة الله وطاعة رسوله.. وفي المقابل كانوا حربا على المتسلطين من غير وجه حق.وكانت نظرية الإمامة عند الشيعة بمثابة الحصن الواقي من الانهيار، فـ (علي ولي الله) يكون شعارهم، ومثالهم.وهو مقياسهم في الحكم والقيادة، وباقي الأئمة المعصومين عليهم السلام هم تعقيب صلاتهم.

نقول هذا في الوقت الذي كان فيه غيرهم، يخضع للواقع تماما، بل يغير نظريته في الإمامة[2] و (يطورها) بحسب الحاجة والطلب إلى

---

(١)سورة التغابن آية ١٦.

(٢) المستشار عبد الجواد ياسين في مقابلة مع الشرق الأوسط ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٣

أن وصلنا اليوم إلى حديث أنه لم يكن هناك طريقة دينية أو إسلامية في الحكم.. يعني انتقلت النظرية عند غير الشيعة، من إمام يبايعه جمع من أهل الحل والعقد إلى إمام منصوب من السابق، إلى ثالث يرجحه رأي واحد في قضية الشورى، إلى حكم الفرد المتغلب أيام الأمويين، إلى كونه ابن الأسرة الفلانية أيام العباسيين، وهكذا.. إلى أيامنا الحاضرة وأنت ترى ما فيها.

هذا الحرص على الأفضل والأكمل في مسألة القيادة العامة، والإمامة الكبرى، بمقدار ما كان حسنا في منع انهيار المقاييس عند الشيعة، فإن البعض قد فهمه بصورة غير متكاملة، فطفق يطالب بتلك المقاييس في كل مكان، بدءا من صلاة الجماعة، إلى القائد السياسي والاجتماعي المرحلي، إلى حدود المطالب.

وهذا هو الذي أوقع الشيعة في كثير من المناطق، في مشاكل:

- فمن البداية كما ذكرنا، وجدنا أن الصور النمطية التي يراها الكثير من الشيعة للعلماء، هي صور في غاية الرفعة والعلو وهي صور الأئمة عليهم السلام، ويطلبونها مع علمهم بأنها غير ممكنة.. صورة إمام الجماعة في ذهنه هي صورة المقدس الأردبيلي أو السيد بحر العلوم! وصورة القائد الاجتماعي هي صورة الإمام المعصوم أو من هو دونه بقليل!!

بالطبع هذا الأمر عندما يكون في حدود الجوانب العلمية

كما أشرت في كتابي فقد ظل باب النظرية السنية في الخلافة مفتوحاً على الدوام حتى منتصف القرن الرابع على الأقل حيث أبدت النظرية قدراً مذهلاً من المرونة استطاعت من خلاله أن تستوعب داخل إطارها دولة الراشدين الشورية، ودولة الأمويين الوراثية الاستبدادية، ودولة العباسيين الأولى بطابعها الدموي، ودولة العباسيين الثانية بحكوماتها السلطانية التي فرغت «الخلافة» من مضمونها الحقيقي. وفي سبيل ذلك فقد استطاعت النظرية السنية - وهي تتلوى مع التاريخ - أن تقر مبدأ الاختيار الطوعي من الأمة للحاكم، ثم تقبل من أبي بكر مبدأ «الاستخلاف الفردي»، ومن عمر «الاستخلاف الجماعي»، وتقبل من تجربة عثمان مبدأ «تأبيد الولاية»، وتقبل من الأمويين مبدأ «توريث السلطة» أو «الأسرة المالكة»، وتقر من خلال الواقع العباسي مبدأ «ولاية المتغلب» من السلاطين والوزراء، حتى إذا ما صار الحاكم في نهاية الأمر ضرباً من السلطة الدينية ذات طابع رمزي فاتيكاني، فإن النظرية فيما يبدو لم تبد اعتراضا».

والأخلاقية، فإنه يكون نافعا إذ يشحذ العزيمة عند الجميع حتى يصلوا إلى ذلك المستوى العالي.

ولكن عندما يتم تحكيمه في أمر العمل الاجتماعي والإدارة السياسية كشرط واجب في من يتصدى للعمل ذاك، تكون النتيجة أن لا يوجد هذا القائد، ويترتب عليه أن يبقى المجتمع الشيعي عندنا في شكوى دائمة من انعدام القيادات.إذ أن المواصفات العالية التي يتم اشتراطها في أبسط الأمور تجعل القضية خاضعة لقاعدة (كلما كثرت القيود قل الموجود).

الصحيح هو أن ينظر إلى كل مجال، وما يتطلبه من مواصفات ضرورية، وتبقى باقي الصفات في دائرة الكمال والاستحباب.

ـ من نتائج هذه المشكلة، أن المجتمع هذا لا يستطيع أن يضع خططا تدريجية لأهدافه، ولذلك لا يستطيع استثمار الظروف والمتغيرات.

أما أنه لا يستطيع أن يضع تلك الخطط التدريجية فلأنه لا يرى الأهداف البسيطة أهلا لأن يطالب بها، بل هو يعيش على عقلية (إما كله أو خله) كما هو في المأثور الشعبي..وإذا لم يرها تستحق المطالبة ولا النضال من أجلها فكيف يضع خططا تدريجية لها؟

ولتوضيح هذه الفكرة يقال:

أن هناك رأيين فيما يرتبط بالمطالبة بالحقوق الاجتماعية

أولهما: يقول أنه إما أن يعطى الإنسان حقه كاملا، فهذا هو الذي يستحق أن يُعمل من أجله وأن يقام له ويقعد!! وأما ما دون ذلك من عطاءات بسيطة (يُتصدق) بها عليه، فهذا لا يستحق شيئا ولا ينبغي أن ينشغل المجتمع به.

وثانيهما: ينطلق من نظرة واقعية، أن على الفرد أو المجموعة أن يحافظوا على ما لديهم، وأن يطالبوا بما هو ممكن من الحقوق، وأن يسعوا لما يرجونه، من أهدافهم العالية.. وكل شيء يحصلون عليه هو إنجاز، ينضم إلى غيره حتى تجتمع هذه الانجازات الصغيرة، فتشكل

إنجازا عظيما فالقرآن يقول: {فاتقوا الله ما استطعتم}[1] وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يسقط الميسور بالمعسور».. إلى غير ذلك مما ورد في النصوص الدينية، التي يستفاد منها هذا الجانب.

وربما ينطلق في تأييد الرأي الأول من واقعة كربلاء ونهضة الإمام الحسين عليه السلام حيث أنه رفض الحكم الأموي جملة وتفصيلا، ولم يقبل أن يعطي الدنية من نفسه.وحيث أن الإمام الحسين عليه السلام هو القدوة الحاضرة، لا سيما مع هذا التركيز الموجود على شخصيته الطاهرة في مناسبة محرم الحرام بل في غيرها من المناسبات، فإن ذلك يزيد من حضور فكرة التغيير الجذري، وعدم التفاعل مع المطالبات التدريجية والجزئية.

بينما يرى أتباع الرأي الثاني أن سيرة الأئمة عليهم السلام هي خير شاهد على فكرتهم، مع ملاحظة استثناء فترة الإمام الحسين، وما يفترض من طريقة الإمام الحجة بن الحسن عجل الله فرجه، نظرا لخصوصية في الحالتين، حيث أن الحالة التي عاصرها الإمام الحسين في عهد يزيد، كانت قد تضيقت عنده الخيارات، إلى طريقين لا ثالث لهما كما أخبر هو عليه السلام فقال «ألا وإن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة»[2].. فلم يكن هناك إذن طريق ثالث، وأما حالة الإمام صاحب العصر والزمان الحجة بن الحسن، فإنها لما كانت عملية ثورية عالمية تملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما مُلئت ظلما وجورا، فإن لها ظروفها الخاصة بها.

وأما بالنسبة لسائر الأئمة عليهم السلام فإن حياتهم قائمة على أساس المطالبة بما يمكن تحقيقه والعمل على ذلك، والاستفادة من الظروف بمقدار ما توفره لهم من إمكانية.

---

١) سورة التغابن آية ١٦.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: للسيد بن طاووس، وقريب منه ما في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام في تاريخ دمشق لابن عساكر.

بين المثالية والمبدئية

قد يختلط الأمر على الكثير في التفريق بين المثالية والمبدئية، وبين المصلحية والواقعية ، فيرونها مترادفة غير أن الصحيح خلاف ذلك.

فالمبدئية في المواقف مطلوبة في كل الأوقات، يعني أن يتخذ الإنسان موقفه في الموقع المعين منطلقا من مبادئه، مع ملاحظة الواقع الذي يعيش فيه.فمثلا لو أخذنا صلح الإمام الحسن عليه السلام مثالا، فإنه بحسب الواقع والظرف الذي كان يعيشه الإمام آنئذ يعتبر الموقف المبدئي الممكن والصحيح.وهكذا مواقف باقي الأئمة المعصومين عليهم السلام..

ونفس الأمر نجده في سيرة العلماء والفقهاء والقادة الرساليين المصلحين.

إلا أن ثقافة (تحقيق كل شيء أو لا شيء يستحق) ظلت هي الحالة الغالبة على شيعة أهل البيت عليهم السلام ، وجعلتهم في فترات مختلفة من التاريخ، وقود الثورات، حيث حماس التغيير يدفعهم، بينما يأتي غيرهم لكي (يأكل) الطبخة، ويستفيد من النتائج.خصوصا وأنهم لم يكونوا يقبلون في الغالب بأنصاف الحلول، أو الممكن من الأهداف الجزئية والتدريجية.

ومع أن الناس في ما يرتبط بحياتهم الفردية والخاصة، وتحقيق حاجاتهم يكونون واقعيين للغاية، ويتعاملون مع الواقع الخارجي بمقاييسه ومعادلاته إلا أنهم عندما يكون الأمر في قضية عامة، يجعلون الحالة المثالية هي المقياس.فهو لا يرى إلا آخر المشوار، وما لم تتحقق جميع الأهداف، فإنه لا يعتقد أن شيئا قد تحقق!!

وفي الحقيقة فإن هذا قد أضاع على شيعة أهل البيت كثيرا من الفرص، وربما كانوا في بعض الحالات على طريقة (أوسعته شتما وسار بالإبل)!!

وينتج عنه أنه بالرغم من وجود الكفاءات العظيمة عندهم إلا أنهم

يظلون، يشكون من عدم وجود القيادات، وإنما ذلك لأجل أن مقاييسهم في القيادة المطلوبة مقاييس (مثالية)[١].

والمشكلة أن هؤلاء الناس (المثاليين) يطالبون بمقاييس مثالية في القيادات والكفاءات، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم عشر معشار تلك الصفات (المثالية)، فالمقاييس العالية مطلوبة في القادة، أما في الأتباع فهم على حالهم ولا يطلبون من أنفسهم شيئا، سوى القدرة على النقد السلبي، والاسترخاء للحكم على هذا وذاك بأنه أصاب أو أخطأ!!

إننا عندما ننظر إلى تاريخ أهل البيت عليهم السلام وتلك الصفات العالية عندهم، والمقاييس الاستثنائية التي تمتعوا بها، نجد أيضا إلى جانبهم أولئك الأتباع الطليعيين، والمضحين.. وقد كانوا في درجات مثالية كذلك[٢].

---

(١) وسيأتي حديث مستقل في هذه النقطة.

(٢) يراجع كتاب بناء القادة في منهج أهل البيت عليهم السلام للمؤلف، في الحديث عن حواريي المعصومين وخلص أصحابهم.

المجتمع بين صناعة القيادات ودفنها

قال تعالى: { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً }[1].

هذه الآية المباركة تعبر عن أحد التطلعات التي يتطلع إليها عباد الرحمن.وذلك أن أدعية الإنسان تعبر عن حاجته وافتقاره، وتبرز تطلعاته.فمن تطلعات عباد الرحمن أنهم يريدون أن يكون أئمة للمتقين[2].

وأول ما ينبغي بحثه هنا:

التفريق بين حب الرئاسة والزعامة، وبين التطلع إلى القيادة، ففيما نجد كما في الآية أن عباد الرحمن يطلبون من الله أن يجعلهم قادة المتقين، وأئمة مسيرتهم، نجد في نصوص أخرى[3] الكثير من الذم لحب الرئاسة، ولمن يحب الزعامة.

وهذه اللهجة القاسية الموجودة في الروايات تجاه طلب الرئاسة تفسرها روايات أخرى بأنه إذا كان طلبها من غير أهلها ولغرض

---

(١)سورة الفرقان آية ٧٤.

(٢) على أحد تفسيري الآية.

(٣) وسائل الشيعة عن كتاب (الرجال) للكشي بسنده عن معمر بن خلاد قال: قال أبو الحسن عليه السلام: ما ذئبان ضاريان في غنم قد غاب عنها رعاؤها بأضر في دين المسلم من حب الرئاسة.. وفي مستدرك الوسائل ج ١١ ص ٣٨٣ عن كتاب إثبات الوصية للمسعودي بسنده عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام: وإياك والإذاعة وطلب الرئاسة، فإنهما يدعوان إلى الهلكة.

- ميزان الحكمة عن عن أمير المؤمنين عليه السلام : من طلب الرئاسة هلك. وعن الإمام الصادق عليه السلام: إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك.

الـترؤس والحـالات الشخـصية.ولعـل قـسما منهـا نـاظر إلى حـالات الحاكمين المتسلطين من غير كفاءة ولا شرعية.

ولكن هناك تطلعاً مشروعاً ومطلوباً، وأحيانا قد يكون واجبا، وهو أن يتطلع الإنسان إلى قيادة مجتمع المتقين، هو ينطلق في ذلك من صلاحيته بالفعل، أو (في المستقبل) لكي يتحمل المسؤولية القيادية، ويهدف إلى خدمة مجتمعه، ودينه.

وذلك أن الناس يختلفون في مستوى طموحهم وتطلعهم، فقد يتطلع إنسان إلى أن يكون من المؤمنين، وأخرى أن يكون من خيارهم «واجعلني من أحسن عبيدك نصيبا»[1]، وثالثة إماما لهم وقائدا لجماعتهم بغرض خدمتهم والدفاع عن حقوقهم.. وهذا تطلع مرغوب فيه، بل ربما كان في بعض الحالات واجبا إذا كان منطلقا من أهله وبغاية خدمة المجتمع.

إن إمام الجماعة في الصلاة أكثر ثوابا من المأموم فيها.والقائد الذي يحقق أهداف دينه في المجتمع أكرم على الله من الشخص الذي ينشغل بنفسه وبحياته الشخصية.

والحديث هنا عن القيادات الاجتماعية ليس حديثا عن رجال الدين، وإنما يشمل أيضا الوجاهات الاجتماعية، والمفكرين، وقيادات العمل الاجتماعي وكل من يستطيع أن يصنع إضافة في هذا المجال.

هناك نقطة أخرى وهي التفريق بين المجتمعات التي تصنع قياداته وتفرزها، وتبرزها ثم تنتفع بها، والأخرى التي تعيق نمو القيادات الاجتماعية، بل وتدفنها لو كانت موجودة.فلنستعرض جانبا من صفات كل من المجتمعين لنرى في أي جانب يقف مجتمعنا الذي نعيش فيه.

---

(١) كما في دعاء أمير المؤمنين عليه السلام الذي علمه كميلا بن زياد النخعي المعروف بدعاء كميل.

صفات المجتمع صانع للقيادات

١ـ مقاييسه في القيادة والإدارة معقولة وليست مثالية:

ويتم المطالبة بها بمقدار ما يحتاج إليه المجال الذي يُدار.فلو فرضنا الحاجة إلى قيادي لفريق رياضي، فهنا نحتاج إلى من يمتلك كفاءة في إدارة النوادي الرياضية، ولكن هذا لو لم يكن عالما بتفاصيل الأحكام الشرعية، أو لم يكن له خبرة طبية فذلك لا يؤثر في إدارته سلبا، ولا يمكن أن يكون عائقا عن قبوله كقيادي لذلك النادي.

وهكذا لو كنا نحتاج إلى قائد عسكري، فهذا لا يتطلب أن يكون عالما بالقضاء، أو أن يكون عارفا بالهندسة أو فقيها، فقد عيّن النبي ﷺ أسامة بن زيد وكان قائدا عسكريا جيدا، مع صغر سنه، وكون غيره أفقه منه، على جيش لقتال الروم.

وقد تقول إن ذلك أمر بديهي، ولكني أقول لك أن المشكلة قائمة في مجتمعنا الشيعي، وهي أن مقاييس القيادة مفصلة على مقدار جسم المعصوم دون غيره، فإذا تحدثنا عن القائد تبادر إلى ذهننا صورة رسول الله ﷺ أو علي بن أبي طالب عليه السلام.. وهذا صحيح في الإمامة العظمى.

أما في الأمر الاجتماعي، فالمقاييس فيه يجب أن تكون في حدود دائرة الممكن والمتيسر، ففي العمل السياسي، نحتاج إلى مقدار جيد من الإخلاص، والوعي، والأداء الحسن..ليس أكثر.لكن مجتمعنا إذا أراد قائدا فإنه يطلب قائدا في مستوى السيد بحر العلوم تقىً، والشيخ الأنصاري علما.. وأبي الحسن الأصفهاني إدارة.. وهو غير ممكن، لذلك يبقى مثل هذا المجتمع بلا قائد.

٢ـ أنه مجتمع يشجع المبادرات القيادية، فإذا وجد شخصا مؤهلا (أو قابلا للتأهيل) ولديه حركة باتجاه خدمة المجتمع فإنه يشجعها ويدعمها، ويرشدها، بينما المجتمع الآخر تراه يقبر تلك المحاولات سخرية، واستهزاء.. فتراه يتساءل كيف يكون (فلان) الذي كان يلعب معنا، ومن أترابنا قائدا لنا؟

انظروا إلى المجتمع الجاهلي القرشي، تجد كمًّا كبيرا من الناس، وهناك عدد محدود من الرجال ذوي الأسماء كانوا بمثابة القادة لهم.. نفس ذلك الكم الكبير المهمل الذي كان لا روح فيه، تحول بعد أن بث فيهم الرسول الإسلام، تحول أشخاصه بمن فيهم العبيد الذين كانوا يُساوَون بالحيوانات إلى رجال وقادة ورواد.وما ذلك إلا لأن رسول الله ﷺ قد بث في داخلهم الحياة وشجع من يمتلك منهم قدرة وكفاءة حتى وصلوا إلى ذلك الموضع العالي.

٣ـ أنه يضع قوته إلى جانب قوة القائد، فتجد لجان المجتمع ومؤسساته، وخبراته واستشارييه في خدمة اتخاذ القرار السليم، المجتمع يضع كل تلك إلى جانب قائده ويرفده بها..

انظروا إلى المجتمعات الغربية!! هل تعتقدون أن شخصا واحدا هو الذي يقود ربع مليار نسمة أو أكثر؟ ويفكر لها، ويخطط لشؤونها؟ كلا.. إنما المجتمع بما فيه من المؤسسات والاستشاريين والهيئات هي التي ترفد ذلك القائد بخبراتها ومعلوماتها فينتج عن ذلك قرارات في مصلحة المجتمع..

مع الأسف ما هو في مجتمعنا: عقلية (اللي قال عليه النكال).. فالقائد لابد أن يعمل كل شيء، يخطط ويثقف ويجمع الأموال ويدير العمل الديني والاجتماعي، بل نحمله مشاكلنا الخاصة أيضا لكي يحلها لنا.

٤ـ أنه مجتمع يعتز بقياداته المحلية: يشير القرآن إلى أهمية محلية القيادة بالنسبة للمجتمع فيتحدث عن الرسل أنه {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[1] ويعتبر ذلك منة من الله على المؤمنين {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}[2].

---

(١)سورة إبراهيم آية ٤.

(٢)سورة آل عمران آية ١٦٤.

وهذا ليس أمرا تعبديا وإنما هو أمر عقلائي، لأن هذا النبي يعرف المجتمع الذي كان منه ويعرف مشاكله، وطريقة تعامله فيسهل عليه أمر علاجها..

بينما بعض المجتمعات ترى أنه مادام الشخص ذو الكفاءة منها فلا يساوي شيئا، وهذه شكوى دائمة من كثير من الأطباء. والعلماء وأصحاب الكفاءات الأخرى.. حيث تحجب الصورة السابقة لذي الكفاءة الصورةَ الحالية، وبدل أن ينظر إلى وضعه الحالي وشأنه المهم الفعلي تراه ينظر إلى أنه من أسرة متواضعة، أو أنه نشأ نشأة كذائية، أو أنه كان قد تربى معنا في جيل واحد، فلا يمكن أن يتقدم علينا، وهكذا..

ومع الأسف فإننا نجد هذه الظاهرة السلبية (وأد القيادات) في مجتمعنا وهذا ليس من التشاؤم ولا جلد الذات..

وربما كان لبعض تلك الحالات ظروفها التاريخية، مثل التشدد في صفات القيادة الذي كان ردا على التساهل الذي حصل في أمر الإمامة والقيادة لدى بعض الفئات الإسلامية[1].. وهو صحيح بالنسبة للإمامة الكبرى، لكن المشكلة أنه انجر إلى مجالات الحياة العامة..

فقد تجد أنه يطلب لصلاة الجماعة فقيه مجتهد بينما لا تحتاج صلاة الجماعة إلا للعادل الذي يتقن القراءة مع بعض الشروط الأخرى التي تتيسر للأكثر .

لقد ذكر شيخ الطائفة الطوسي قدس سره[2] كلاما جيدا في كتابه:

---

(١) وقد سبق الحديث عنه في محاضرة أخرى.

(٢) ذكره المحدث القمي في الكنى والألقاب ج ٢ ص ٣٩٤ فقال ـ ما ملخصه ـ: هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسي شيخ الطائفة على الإطلاق ورئيسها الذي تلوى إليه الأعناق صنف في جميع علوم الإسلام وكان القدوة في ذلك والإمام، تلمذ على الشيخ المفيد والسيد المرتضى وأبي الحسين علي بن احمد بن محمد ابن أبى جيد القمي الذي يروي عنه ووثقه جمع من العلماء وغيرهم رحمهم الله وكان فضلاء تلامذته الذين كانوا مجتهدين يزيدون على ثلاثمائة من الخاصة ومن العامة ما لا تحصى ولد في شهر رمضان سنة ٣٨٥ بعد وفاة شيخنا الصدوق بأربع سنين وقدم العراق سنة ٤٠٨ بعد وفاة السيد الرضي بسنتين

الاقتصاد الهادي إلى طلب الرشاد يقول فيه:

وكل من ولي ولاية صغرت أو كبرت كالقضاء والإمارة والجباية وغير ذلك فانه يجب أن يكون عالما فيما أسند إليه ولا يجب أن يكون عالما بما ليس بمستند إليه، لأن من وُلّي القضاء لا يلزم أن يكون عالما بسياسة الجند، ومن ولي الإمارة لا يلزم أن يكون عالما بالأحكام، وهكذا جميع الولايات، ولا يلزم أيضا أن يكون عالما بصدق الشهود والمقرين على أنفسهم، لأنه إنما جعل إماما في الحكم بالظاهر دون الباطن.

وقد هوّن الإسلام مسألة القيادة (الاجتماعية) وحاول أن يربي المسلمين على إفراز القائد من بينهم، فسنَّ الجماعة في الصلاة حضرا وسفرا، وجعل الإمارة والقيادة أمرا يسيرا، فإذا سافر جماعة «إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»، و « إذا كنتم ثلاثة في سفر فليؤمكم أحدكم وأحقكم أقرؤكم»[1].

وكان ببغداد ثم هاجر إلى مشهد أمير المؤمنين عليه السلام خوفا من الفتنة التي تجددت ببغداد وأحرقت كتبه وكرسي كان يجلس عليه للكلام. فكان مقامه في بغداد مع الشيخ المفيد قدس سره نحوا من خمس سنين ومع السيد المرتضى نحوا من ثمان وعشرين سنة وبقي بعد السيد أربعا وعشرين سنة اثني عشر سنة منها في بغداد ثم انتقل إلى النجف الأشرف وبقي هناك إلى أن توفي ليلة الاثنين الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٤٦٠ . وله في التفسير كتاب التبيان الجامع لعلوم القرآن وفي الحديث له كتابا التهذيب والاستبصار. وفي الفقه له المبسوط والنهاية، والخلاف والجمل والعقود في العبادات، وله في الأصول العدة في أصول الفقه، وفي الرجال: الفهرست، وكتاب الرجال، واختيار معرفة الرجال، وفي العقائد الشافي في الإمامة والمفصح في الإمامة، والغيبة في إثبات غيبة صاحب الزمان، وله أيضا مصباح المتهجد.. وغيرها من الكتب.

(١) الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله من ميزان الحكمة للري شهري، ويلاحظ فيها تسهيل اتخاذ الأمير في السفر وهو حالة اجتماعية بين مجموعة، والمقصود كنتم ثلاثة فصاعدا لا أنه ثلاثة لا تزيد ولا تنقص.. ويضاف إلى ذلك أنه قد يستفاد منها أن التطلع لقيادة هذه المجموعة لما كان طبيعيا، ومشروعا، وكان محلا للتنافس فقد ذكر هذا الحديث، ميزانا وهو الأقرأ في الصلاة. باعتبار أن هذه الجهة هي المطلوبة في الصلاة. وطبعا لا يمنع ذلك من ثبوت بعض الصفات الأخرى لجواز الائتمام من أحاديث أخر مثل: صل خلف من تثق بدينه.. وغيره من الأحاديث المذكورة في باب صلاة الجماعة.

وينبغي الإشارة هنا إلى بعض الحالات النفسية التي تمنع قبول بروز القيادات في المجتمع: قد يكون منها الحسد المبطن، والتنافس غير الشريف، فتجد البعض حين يرى إنسانا قد توجهت الأضواء إليه، وأصبح موضع قبول عامة الناس، وهو يتحرك وينجح في نشاطاته.. بينما هذا الطرف الثاني يعتقد أنه أفضل منه وأولى بهذا الموقع، فيحسده، ويتحرك ضده، بالطبع لا يقول أنني أحسد فلانا، ولكن ذلك يُعرف من خلال ما يصدر من تعليقات..فيقول مثلا لبعض من يمدحه: هذا عميل، وهذا نيته غير صالحة..الخ.

شتان بين الموقفين

بين ما يُنقل في التراث العربي بين الأصحاب من الصفاء والسمو وبين مثل هذه النماذج: وأنقل لك حادثتين:

نقلوا أنه كان بين حاتم الطائي وأوس بن حارثة أفضل ما يكون بين اثنين، فنُقل ذلك للنعمان بن المنذر فقال النعمان لجلسائه: والله لأفسدن ما بينهما!! قالوا لا تستطيع.. فلما دخل عليه أوس قال له: أسمعت ما يقول حاتم؟ قال: وما يقول؟

قال يقول:إنه أفضل وأشرف!

قال: أبيت اللعن صدق! والله لو كنت أنا وولدي لأنهبنا في مجلس واحد! (يعني سمح لنا بأن نأخذ كل ما في بيته).

ثم دخل حاتم فقال له مثل مقالته لأوس، فقال حاتم: صدق أين عسى أن أقع من أوس؟! له عشرة ذكور، أخسهم أفضل مني..

- ومثل ذلك ما يُنقل من قصة الشيخ البهائي[1] والسيد الداماد[1]

---

(١) الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجبعي العاملي الهمذاني الحارثي: (٩٥٣ - ١٠٣١ هـ)، بهاء الدين: عالم أديب إمامي، من الشعراء. ولد ببعلبك، وانتقل به أبوه إلى إيران. ورحل رحلة واسعة، ونزل بأصفهان فولاه سلطانها (شاه عباس) رياسة العلماء، فأقام مدة ثم تحول إلى مصر. وزار القدس ودمشق وحلب وعاد إلى أصفهان، فتوفي فيها.. الأعلام - خيرالدين الزركلي ج ٦ ص ١٠٢

ذكره في الكنى والألقاب، قال: مجدد المذهب على رأس المائة الحادية عشر،

فإنهم يذكرون أنهما كانا قد خرجا مع الشاه الصفوي (الشاه عباس) وكان السيد الداماد عظيم البدن هاشمي الطول والهيكل بخلاف الشيخ البهائي الذي كان صغير الجثة.. فنظر الشاه الصفوي إلى كل منهما وقد ركب فرسه، وكانت فرس السيد الداماد تتحرك ببطء، نظرا لثقل بدن السيد الداماد، فأسرّ الشاه القول للشيخ البهائي: ألا تنظر إلى هذا السيد كيف أهلك الفرس بضخامة جثته؟ وألم يكن الأنسب أن يكون نحيف البدن؟ فقال له الشيخ البهائي: يا أيها السلطان لا هذا الفرس ولا غيره يستطيع أن يحمل مثل السيد الداماد، بل لا تستطيع الجبال أن تحمل ثقل علم رجل هو أعلم أهل الدنيا، فكيف بالفرس!!

فابتعد عنه قليلا وقصد السيد الداماد وأسر إليه قائلا ـ وكانت فرس الشيخ البهائي تتحرك بسرعة وبما يشبه القفز ـ: ألا ترى الشيخ كيف يقفز بالفرس ويتحرك به هكذا.. وهو مما لا يناسب العلماء!

فقال: لقد فاتك الأمر أيها السلطان فإن الفرس لما علمت أن راكبها الشيخ البهائي وهو أعلم أهل الأرض، فهي تقفز فرحا، بل يحق لها أن تطير سرورا!!

انتهت إليه رئاسة المذهب والملة له تصنيفات وتأليفات متعددة، منها حبل المتين، ومشرق الشمسين والأربعين، والجامع العباسي، والكشكول، والمخلاة، والعروة الوثقى، ونان وحلوا والزبدة، والصمدية، وخلاصة الحساب، وتشريح الأفلاك، والرسالة الهلالية، ومفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة، والاثنى عشريات، والتهذيب، والحواشي على الفقيه وعلى خلاصة الرجال، وعلى الكشاف والبيضاوي وغيرها.

(١) ذكره في معجم المطبوعات العربية والمعربة ج ١ ص ٨٦٠: فقال: الداماد (ت١٠٤٠ ه) شمس الدين محمد باقر بن محمد الحسيني الاسترابادي الشهير بداماد كان من أجلاء علماء المعقول والمشروع وأذكياء نبلاء الأصول والفروع. قاطنا بدار السلطنه اصبهان مقدما على فضلائها الأعيان مقربا عند السلاطين الصفوية بل مؤدبهم بجميل الآداب الدينية. وكان شاعرا بالفارسية والعربية. من مصنفاته في الحكمة القبسات والصراط المستقيم والحبل المتين وفى الفقه شارع النجاة ومن مؤلفاته كتاب عيون المسائل ونبراس الضياء وخلسة الملكوت وكتاب الرواشح السماوية والسبع الشداد. وغير ذلك: ذهب في آخر عمره من أصبهان إلى زيارة العبادات العاليات فمات هناك.

ولم يعلم أي من العلمين ماذا دار بين كل منهما وبين الشاه، فنزل الشاه عن فرسه وسجد لله شكرا، لما رأى ذلك الصفاء والود القلبي بين العالمين.

وقد يكون من موانع بروز القيادات، الانطلاق من الحالات الفئوية والحزبية، فترى البعض يرى أن العمل الكذائي جيد، ولكنه لما كان من فلان فإنه يصبح سيئا!!

وإن من المهم أن نطهر مجتمعنا من هذه الحالات، ونسعى لكي يكون مجتمعا فاعلا، متحركا، يرصد المبادرات الطيبة، ويشجع عليها، ويرفد قياداته بما ينفعها لينتفع بها..

بداية الإصلاح الديني

الاعتراف بالمذاهب الإسلامية

قال تعالى:

{ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ }[١]

قل أن تجد شعارا قد تم الاجتماع والتوافق عليه كشعار الإصلاح في زماننا، فهو مطلب الشعوب التي تتوق إليه، ونخب المجتمع التي تطالب به، بل وهو غاية الحاكمين حيث يرفعون هذا الشعار ويصرحون به.

وأمتنا الإسلامية تحتاج بالفعل إلى تحرك جدي باتجاه الإصلاح، لتخرج عن واقعها المرير السيئ إلى الموضع الذي اختاره الله لها عندما قال { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }[٢].

هذه الأمة التي كُبِّلت بكثير من الأغلال، وقُيِّدت بعدد من الموروثات والتقاليد التي منعتها من السمو والصعود إلى مصاف المجتمعات المتقدمة، فضلا عن الوصول إلى موقعها الإلهي المذكور، لا بد أن تستفيد من فرصة المطالبة بالإصلاح حتى تنفض عنها تلك الأغلال والأصفاد..

ونظرا لما يمثله الدين والعقيدة من موقع فيها فإن أول ما ينبغي التفكير فيه هو الإصلاح في الأفق الديني، إذ أن حركة هذه الأمة مرتبطة بدينها، وعلاقاتها تنطلق منه، وهكذا.

وأول ما سنلاحظه في هذه الجهة أن في الأمة مسالك ومذاهب

---

(١)سورة المؤمنون آية ٥٢.

(٢)سورة آل عمران آية ١١٠.

مختلفة فيما تعتقده كل فئة حقا وصوابا، في فقههم وفكرهم، في أمورهم العقائدية والأخرى العبادية الشرعية، وتحاول كل فئة أن تطبق أعمالها وفق المذهب الذي تراه صحيحا بينها وبين ربها.ولا نحتاج إلى إقامة دليل على هذا التعدد المذهبي في الأمة، فالوجدان والعيان يغني عن الدليل والبرهان.

لكننا سنلاحظ أيضا أن هناك خللا كبيرا مع وجود واقع التعدد المذهبي، ذلك الخلل هو وجود تنكر لمذهب أهل البيت عليهم السلام، مع أن أتباع هذا المذهب يصلون إلى ربع المسلمين، بل إذا أُريد حسابهم إلى كل مذهب فإنهم إن لم يكونوا الأكثرية فهم لا يقلون عن أتباع باقي المذاهب.

مع ذلك فإن صور التنكر للمذهب واضحة.فلا اعتراف برموزه الفكرية والعقيدية ولا بفقهه وفقهائه، وتجد غيابا (أو تغييبا) كاملا لكل ما يرتبط به، في المستوى الإسلامي العام.. بل يشط الأمر عندما تتعامل بعض بلاد المسلمين مع التشيع باعتباره قضية أمنية، فيقبض على من يدعو للتشيع أو يتمذهب به..

وتعتري المرءَ الدهشةُ! فكيف يمكن أن يتصور إنسان أن هذه الأمة، بما فيها من العقلاء والعلماء، تحذف ربعها (سكانا)! وتسلخ جانبا عظيما من حضارتها! وتتنكر لما لا يقل عن ثلاثمائة وخمسين مليون من أبنائها؟ ولمذهب له مدرسته الفكرية الضخمة في العقائد، وقواعده الفقهية، ومصنفاته العظيمة في مختلف المجالات[1]..

كيف يمكن أن يتعقل إنسان أن تعتبر الأمة واقعا بهذه القوة ـ من الحضور تاريخيا وفكريا وسكانيا ـ غير موجود؟

وكيف لا تزال هذه الأمة رهينة خطيئة قرار قام به حاكم سياسي قبل عشرة قرون من الزمان ضمن ظروف معينة، وقد تغير ذلك الحاكم واندثرت تلك الدولة وتبدلت تلك الظروف، لكن هذا القرار لا يزال يكبل عقول الأمة! ويصفد أرجل مفكريها عن

(١) للتفصيل يمكن مراجعة الكتاب القيم لآية الله السيد حسن الصدر: تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام.

الحركة الصحيحة! من دون أن يتساءل أحد لماذا يكبل ذلك القرار الأمة، وإلى متى؟! لماذا لا تزال الأمة بسياسييها وعلمائها ومثقفيها أسرى، لقرار بحصر المذاهب في الأربعة المعروفة، واعتبار ما عداها شيئا باطلا أو غير موجود؟ إن لم يكن هذا الاعتبار بقرار، فهو بحكم الواقع السائد.

فهلم نتعرف كيف وصلت الحالة في الأمة إلى هذا المأزق، ومن الذي ورطها في هذا المستنقع؟ ولنكن مع البدايات:

فإننا لم نشهد في أيام الخلفاء الأوائل بعد النبي ﷺ ولا في أيام الدولة الأموية، محاولة رسمية واضحة لفرض مذهب واحد على جميع المسلمين وإلزامهم به، مع أنه ربما كان لدى بعض الخلفاء والحاكمين رغبة في ذلك، وميل للأخذ بمنهج معين، لكن لم يذكر التاريخ محاولة رسمية جدية لفرض مذهب محدد على المسلمين، وإلزامهم على الأخذ به.

وأول محاولة علنية ورسمية في إلزام الناس وإجبارهم على مذهب واحد كانت محاولة المنصور العباسي.

ولنا هنا قبل أن ندخل في البحث التاريخي أن نتساءل أنه هل يستطيع حاكم بشري أن يقرر على جمهور من المسلمين أن يتبعوا مذهبا يختاره هو لهم، ويجبرهم على العمل به؟ حتى لو كان بزعم التنظيم لحياتهم؟

لا شك أنه لا يستطيع ذلك أحد، فإن انتخابه لمذهب معين، ملزِم له ولا يلزم غيره، و التعبد بمذهب يختلف عن ما يرتبط بتنظيم الأمور الحياتية، ففيها يمكن للحاكم سواء كان شرعيا أو غيره أن يُلزم من هو تحت سلطته بقانون المرور مثلا، لتنظيم الحياة المدنية، وأنه لا يستطيع أن يقود السيارة إلا بإتباع تلك القوانين، ولكن أمر الدين والمذهب يختلف اختلافا كبيرا عن ذلك، فإن معنى اختيار الإنسان لدين أو مذهب أنه يراه طريقا للوصول إلى رضا الله وجنانه، والنجاة من عذابه ونيرانه.. بينما يرى سائر المذاهب لا تحقق له هذا الهدف ولا توصله إليه.. وإلا لكان اختارها.

ولهذا لا يستطيع أحد أن يُلجئ إنسانا أو يكرهه على اتخاذ مذهب أو دين معين، ما لم يعتقده بقلبه ويقبل عليه بنفسه، وقد قرر القرآن الكريم تلك الحقيقة بقوله {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[1]. ولهذا لا معنى لما يقوله البعض من أنه لماذا لا يجتمع المسلمون في مذهب واحد فإن ذلك أفضل وأولى، إذ مع فرض تعدد المذاهب واعتقاد كل واحد منهم بأن مذهبه هو الذي يحقق رضى الله والفوز بجنته فلا معنى لأن يتركه حتى يصبح متبعا لمذهب آخر، ما لم يقتنع بالمذهب الآخر.

ففرض المذهب لم يكن ممكنا ولا يمكن الآن ولن يمكن في المستقبل.وأمامك التاريخ والحاضر في كل الشعوب.وبالفعل فقد فشلت المحاولة على المستوى الشعبي، والجماهيري، وإن كان ربما في المدى السياسي والقضائي يمكن إجبار الناس على ذلك لكن يكون حينها للناس فقهان خاص بحياتهم وعباداتهم..وآخر رسمي يلتزمون به ظاهرا وهذا شاهد على فشل الإلجاء والإكراه.

على أي حال.. فقد كانت المحاولة الأولى هي محاولة المنصور العباسي مع إمام المذهب المالكي مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، فقد كانت العلاقة بين مالك بن أنس والمنصور العباسي علاقة قوية حتى نقل أنه قال له: لو لم يرك الله أهلا لذلك لما قدر لك ملك الأمة.. وفي المقابل قال المنصور له: ضع هذا العلم ودونه فلنحملن الناس على علمك وكتبك ونبثها في الأمصار ونعهد إليهم ألا يخالفوها ولا يفتوا بسواها.ويسجل التاريخ للإمام مالك رفضه لحمل الناس على فقهه باعتبار أن الناس قد سبقت لهم روايات وأنه لم يحط بها كلها.. ولكن من الناحية الرسمية تبنى العباسيون آنئذ المذهب المالكي، حتى قيل لا يفتى ومالك في المدينة!!

في نفس تلك الفترة وفي المقابل كان أبو حنيفة النعمان، إمام

---

(١)سورة البقرة آية ٢٥٦. قد يكون المراد منها حكما تشريعيا بمعنى أنه لا يجوز الإكراه على الدين، وقد تحكي عن حقيقة خارجية وهي أنه لا يمكن الإكراه على الدين حيث أنه مرتبط بالقلب، والاعتقاد وحركة القلب واعتقاداته لا تخضع لإكراه، ولا تستجيب للقوة، حتى وإن أظهر الإنسان موافقته للمكرِه.

المذهب الحنفي، من المغضوب عليهم من قبل العباسيين وليس الأمر بعيدا عن المسألة السياسية، فإنه رأى أن بيعة محمد النفس الزكية بيعة صحيحة.. وكان الإمام جعفر الصادق عليه السلام سادس أئمة أهل البيت معدودا في الخط المناوئ للعباسيين[1] فلم يكن طبيعيا أن ينتخب مذهباهما ليكون المذهب الرسمي المفروض، وأما محمد بن إدريس الشافعي إمام المذهب الشافعي (ت ٢٠٤) فلم يكن في ذلك الوقت صاحب مذهب بعد ومثله أحمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي (ت ٢٤١) الذي لم يكن قد ولد بعد.

بالرغم من أن تلك المحاولة قد فشلت على مستوى الجمهور، برفض مالك بن أنس لها، إلا أن الجهة الرسمية قد تمسكت بذلك، وأصبح المذهب الرسمي في القضاء وما يرتبط ببيت المال وحلقات التدريس والعلم، وإمامة الجماعة، بينما لم تجد باقي المذاهب تلك العناية التي حصلت للمذهب المالكي.

غير أن المذهب الحنفي سوف يجد له ازدهارا أيام هارون الرشيد بعدما صار أبو يوسف في زمانه قاضي القضاة وغلب على أمر هارون كما قيل.. فنشر المذهب الحنفي، ولم يول قاضيا غير حنفي.وبقيت سائر المذاهب في الظل، بعدما حجب عنها التأييد الرسمي.

لكن في فترة المتوكل العباسي سوف نجد ازدهارا لمذهب إمام الحنابلة أحمد بعد أن دعم المتوكل هذا المذهب بقوة بعد إقصاء عمدي وتضييق شهده المذهب الحنبلي أيام المأمون في قضية خلق القرآن المعروفة.

استمر الحال هكذا مذهب يصعد على أثر تقريب الحاكم وآخر يزوى على أثر إبعاد حاكم آخر.. دون مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي شهد إقصاءً مستمرا تبعا للعلاقة المتوترة التي كانت بين العباسيين وبين أئمة أهل البيت.

---

(١) بشكل عام كانت العلاقة بين العباسيين وأئمة أهل البيت وشيعتهم متوترة من قبل العباسيين، تشتد في الغالب وترتخي في أحيان قليلة. وقد أوذي أكثر أئمة أهل البيت عليهم السلام بواسطة الحكام العباسيين.

في هذه الفترة كان الفقهاء يزدادون، سواء في ضمن مذهب موجود أو فقهاء كان الواحد منهم يرى أنه صاحب رأي مستقل، ومذهب خاص ولا يلتزم برأي من سبقه من الفقهاء المعروفين. بل رأى بعض المحققين أن بعض من جاء فيما بعد كابن جرير الطبري أفقه[١] وأعلم ممن تقدمهم من المعروفين.

واستمر الحال هكذا إلى أن أعلن القادر العباسي عدم تدريس أي فقه في المستنصرية غير الأربعة، وكذلك في القضاء وذلك سنة ٣٨١هـ.

وكان هذا القرار السياسي وما تبعه من حصر المذاهب في الأربعة (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي)، بمثابة الضربة القاضية التي وجهت لحركة الاجتهاد الفقهي لدى المسلمين[٢]، واعتبار أن الأجيال المتأخرة لا أهلية لها لعلم الشريعة، ولا قابلية لها للاجتهاد، وأن من أراد أن يجتهد فلا بد أن ينتخب له مذهبا ويجتهد في ضمنه أو في ضمن الأربعة دون أن يخرج عن إطارها.. الأمر الذي جابهه عدد جمٌّ من الفقهاء إلا أن صرخاتهم كانت في واد وطوتها رياح السلطة.

أسباب حصر المذاهب في الأربعة

قد لا تستطيع أن تجد سببا مقنعا لهذا القرار السياسي في حصر

---

(١) قيل أن ابن جرير الطبري قد ألف كتابا عن اختلاف الفقهاء ولم يذكر بينهم أحمد بن حنبل فلما قيل له في ذلك قال: لم يكن فقيها إنما كان محدثا. راجع أدوار علم الفقه ١٦٥، وذكر ابن كثير في البداية والنهاية ج ١١ ص ١٦٦: قال الخطيب: وبلغني عن الشيخ أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الفقيه الاسفرائيني أنه قال: لو سافر رجل إلى الصين حتى ينظر في كتاب تفسير ابن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيرا، أو كما قال. وروى الخطيب عن إمام الأئمة أبي بكر بن خزيمة أنه طالع تفسير محمد بن جرير في سنين من أوله إلى آخره، ثم قال: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير، ولقد ظلمته الحنابلة. وقال محمد لرجل رحل إلى بغداد يكتب الحديث عن المشايخ - ولم يتفق له سماع من ابن جرير لان الحنابلة كانوا يمنعون أن يجتمع به أحد - فقال ابن خزيمة: لو كتبت عنه لكان خيرا لك من كل من كتبت عنه.

(٢) اندثرت مذاهب بالرغم من علم أصحابها: كابن جرير الطبري ت ٣٨١، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، والليث بن مسعود، وسفيان الثوري..الخ.

المذاهب في الأربعة (لا أكثر ولا أقل).. ولهذا «فقد اختلف في الأسباب التي أوجبت حصر المذاهب في الأربعة فالذي عليه ياقوت الحموي أن القادر العباسي المتخلف سنة ٣٨١ هـ أمر أربعة من علماء الإسلام أن يصنف كل واحد منهم مختصرا على مذهبه فصنف الماوردي الشافعي الإقناع وصنف أبو الحسين القدوري مختصرا على مذهب أبي حنيفة وصنف أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن نصر المالكي مختصرا ولم يعرف من صنف له على مذهب احمد بن حنبل ولما عرضت على القادر قبلها وأمضى العمل عليها.

ويحدث ملا عبد الله المعروف بالأفندي تلميذ المجلسي في رياض العلماء اتفاق رؤساء الأمة في زمن علم الهدى الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ على تقليل الآراء في الأحكام الشرعية لئلا يوجب كثرة الخلاف قلة الوثوق بالشريعة المقدسة فتلحق بالأناجيل المبتدعة ولحصر ذلك عينوا مبلغا من المال فكل طائفة تدفعه يقرر مذهبها رسميا فاستطاع أرباب المذاهب الأربعة أن يدفعوا ذلك المقدار من المال لوفور عدتهم وعددهم وتأخر غيرهم ولم يوافق الشيعة الإمامية على هذا وعجز الشريف المرتضى عن إقناعهم فتقررت المذاهب الأربعة عند الدولة رسميا ودرس غيرها .

وهذه الحكاية لا تتباعد عما حكاه الحموي لأن الشريف المرتضى عاصر القادر بالله في كثير من السنين فيمكن أن ترتئي الدولة مالا خطيرا لقطع المعاذير وتقليل الآراء كما أن من المحتمل أن القادر بالله غرس هذه البذرة وتم نتاجها وتحكمت أصولها في زمن الملك (بيبرس) الذي يحدث المقريزي عنه بقوله: لما كانت سلطنة الملك الظاهر (بيبرس البند قداري) ولى بمصر القاهرة أربعة قضاة شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي واستمر ذلك في سنة ٦٦٥ هـ حتى لم يبق من مجموع أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة وعقيدة الأشعري أبي الحسن علي ابن إسماعيل وعملت لأهل المدارس والربط في سائر ممالك الإسلام وعُودي من تمذهب بغيرها وأنكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة احد ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس ما لم يكن مقلدا لأحد هذه المذاهب

وأفتى فقهاء الإسلام طول هذه المدة بوجوب إتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها والعمل على هذا إلى اليوم»[١].

هناك نقطة أخرى ترجع إلى شخصية القادر بالله العباسي صاحب القرار المذكور وهي أنه يظهر أن هذا الحاكم كان متأثرا بحالات خاصة في إقصاء الغير فقد نقل أنه كتب كتابا يتلى في كل جمعة فيه الإنكار على المعتزلة وتبديعهم! والإقرار بفضل الصحابة، واستتابة من خالف هذا!. وأمر ولاته أن يصنعوا ذلك[٢].

كما أن الظرف السياسي الذي عاشه والذي كان في حالة تنافس مع الدولة الفاطمية في مصر والتي كان تظهر تمذهبها بأهل البيت عليهم السلام، وتبرز شعائرهم، قد أثر في هذه الجهة ونجد أن الخليفة القادر كان قد تحسس من قصيدة نقل إليه أنه قالها الشريف الرضي رحمه الله:

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وأنف حمي

أحمل الضيم في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة الفاطمي

من أبوه أبي وجده جدي إذا ضامني البغيض القصي

فتشكى الخليفة القادر من الشريف عند أبيه الحسين بن موسى[٣] وسعى لاستثمار هذه الفرصة في كتابة كتاب يوقع عليه

(١) الاجتهاد والتقليد / ١٥ تقريرات الشيخ الغروي للسيد الخوئي.

(٢) فهل هذا الذي قام به هو الذي جعل بعض الكتاب يعده من مجددي الإسلام على رأس المائة الرابعة ؟! كما في عون المعبود في شرح سنن أبي داود.لمحمد العظيم آبادي ناقلا عن جامع الأصول، وقد استنكر المذكور كيف عد صاحب جامع الأصول الشريف المرتضى من المجددين، مع أنه من المبتدعة !! بينما أيد كون القادر بالله من مجددي تلك المائة.. فتأمل وتعجب !

(٣) يذكر أن علاقة القادر كانت في حالة توتر وعدم استقرار حتى مع الحسين بن موسى (والد الشريفين الرضي والمرتضى) أيضا، فإنه لما ولاه بهاء الدولة القضاء ونقابة الطالبيين لم يمكنه القادر بالله من ذلك كما يذكر ابن عنبة في عمدة الطالب / ٣٠٣، وكأن حالة من الاستقطاب السياسي كانت قد سادت آنئذ بين الفاطميين في مصر، والعباسيين في بغداد بالنسبة إلى زعماء الطالبيين. وقد صرف القادر بالله الشريف عن نقابة الطالبيين وعزله عنها، واستعمل غيره، وللشريف شعر احتجاجي على تلك الخطوة.

وسعى لاستثمار هذه الفرصة في كتابة كتاب يوقع عليه الطالبيون الموجودون في بغداد يتضمن القدح في نسب الفاطميين، والتشنيع عليهم.لكن الشريف الرضي رفض ذلك.

وفي موضع آخر عندما قال الشريف الرضي:

عطفا أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نتفرق

مابيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا في العلاء معرق

إلا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق

قال القادر بالله العباسي له: على رغم أنف الشريف..

هذه الحالات غير المستقرة من العلاقة بين القادر بالله العباسي، وبين الطالبيين، وكونه ممن يوصف بالإقصاء نحتمل أنها ساعدت على قرار القادر في حصر المذهب واستبعاد التشيع.

وينبغي هنا أن نلفت النظر ونتأمل في بعض ما ذكره المقريزي من تطور هذا الأمر إلى حد أنه تجاوز حالة القرار الرسمي باعتماد المذاهب المذكورة واستبعاد ما عداها إلى أن عودي من لم يتمذهب بها، والفرق بين كون العداوات والتفسيق ناشئة من العوام وبين نشوئها من العلماء والأمراء فرق كبير..وأن يتلى كتاب رسمي يهاجم بعض فئات المسلمين (كالمعتزلة) ويستتاب فيها من يؤمن بأفكارهم!! فعادت صور فتنة خلق القرآن، بشكل جديد!!

ومقتضى هذا القرار أن يكون من سبق المذاهب الأربعة ساقطين من الاعتبار، حتى لو كانوا مثل أئمة أهل البيت وهم على غير المذاهب الأربعة، فهم لا يستحقون إمامة الصلاة أو التدريس أو أن لا تقبل شهادتهم.. وهكذا بقية أرباب المذاهب غير الأربعة: كابن جرير الطبري وغيره.. وهذا عبد الوهاب السبكي يقول: أنا مجتهد الدنيا على الإطلاق ولا أحد يرد علي هذه الكلمة، والإمام الشوكاني والسيوطي، وكلهم يدعون الاجتهاد المطلق.. هؤلاء ينبغي بناء على هذا القرار أن لا تقبل شهادتهم، ولا إمامتهم للصلاة!!.

❖❖ في سنة ٦٢٥ عندما تم تجديد بناء المستنصرية، جعلت أربعة أقسام ووضع لكل مذهب كرسي للتدريس.

ما هي المبررات التي تُذكر لعدم الاعتراف بالتشيع؟

قد تذكر مبررات لعدم الاعتراف بمذهب التشيع منها:

١/ اختلافه عن المذاهب الأخرى: فيقول هؤلاء أن التشيع يختلف عن سائر المذاهب السنية الأربعة ولهذا لا يمكن الاعتراف به.

وجواب هذا الكلام: أن معنى المذهب هو اختلافه بنحو ما عن غيره وإلا لو كان متطابقا مع سائر المذاهب فلا معنى لكونه مذهبا..

ربما يقول بعضٌ إن الاختلاف بين التشيع وغيره اختلاف كبير!!

وجوابه أي المذاهب كانت تتفق؟ فهي تختلف في الأدلة بحيث بعضها يرى دليلا باطلا والآخر يراه حقا! فلماذا لم تمنع تلك الاختلافات اعتراف المذاهب الأربعة ببعضها.

فمثلا الأحناف والحنابلة يرون المصالح المرسلة والاستحسان بينما يرى الشافعي أن من استحسن فقد شرَّع (وارتكب الحرام).

وأن بعضهم قد كفّر أبا حنيفة لأجل استعماله القياس.. بينما لا نعلم أن أحدا من أئمة المذاهب أو غيرهم من العلماء قد ضلل الإمام جعفر الصادق عليه السلام أو انه جعله مبتدعا.. ولكي نبين لك حجم هذا الاختلاف بين تلك المذاهب ننقل ما ذكره الخطيب البغدادي:

قال أبو بكر بن أبي داود السجستاني يوما لأصحابه: ما تقولون في مسألة اتفق عليها مالك وأصحابه والشافعي وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والحسن بن صالح وأصحابه، وسفيان الثوري وأصحابه، واحمد بن حنبل وأصحابه، فقالوا له: يا أبا بكر لا تكون مسألة أصح من هذه، فقال: هؤلاء كلهم اتفقوا على تضليل أبي حنيفة!.

ونحن نرى أن فكرة التبديع والتضليل لم تكن في صالح الأمة، وهي غير لائقة بمستوى العلماء ولا نعتقد بأنها طريقة حسنة في حل الخلافات.. وإنما نسوق ما سبق ذكره للرد على القائل بأن الاختلاف

بين التشيع وبين غيره من المذاهب، اختلاف في الأصول بينما لا يوجد ذلك الاختلاف بين سائر المذاهب، فأي اختلاف أكبر من أن يعتبر إمام مذهب ضالا ومبتدعا؟..

وأخرج الخطيب أيضا بالإسناد إلى وكيع قال: اجتمع سفيان الثوري وشريك، والحسن بن صالح، وابن أبي ليلى فبعثوا إلى أبي حنيفة فأتاهم، فقالوا له: ما تقول في رجل قتل أباه، ونكح أمه، وشرب الخمر في رأس أبيه، فقال: هو مؤمن، فقال له ابن أبي ليلى: لا قبلت لك شهادة أبدا، وقال له سفيان الثوري: لا كلمتك أبدا، وقال له شريك: لو كان لي من الأمر شيء لضربت عنقك، وقال له الحسن بن صالح: وجهي من وجهك حرام أن انظر إلى وجهك أبدا.

وأخرج الخطيب أيضا عن الإمام مالك بن انس قال: ما ولد في الإسلام مولود اضر على أهل الإسلام من أبي حنيفة[1].ونقل عن الأوزاعي مثل ذلك!!

فهل هذه الاختلافات بهذا المستوى لا تمنع من الاعتراف المتبادل بين المذاهب، بينما ما دونها من الاختلاف الموجود بين التشيع وسائر المذاهب يمنع من الاعتراف به؟

٢/ من المبررات التي تذكر، التسهيل في أمور القضاء والحكم وإن تكثير المذاهب يصنع المشاكل ويخرق وحدة الأمة.

وجوابه بالسؤال: هل أن الإجماع يختل ويحصل التشرذم لو زاد مذهب بين المذاهب؟ بينما إذا كانت أربعة يكون هناك إجماع واستقرار؟ لننظر ما يقوله التاريخ بعد قليل.. وهل حصل ذلك الإجماع والاجتماع والوحدة والتآلف بين المسلمين على أثر وجود أربعة مذاهب معترف بها؟

أما القول بأن هذا لأجل تنظيم الأمور: فجوابه أنه لم يتم ذلك بالنسبة إلى المذاهب الأربعة، فإما أن تتحد المذاهب في واحد حتى

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣، وكتاب العلل لأحمد بن حنبل ج ٢، و غيرهما..

يسير الناس على هذا المذهب الواحد، وقد عرفت أنه لا يمكن إجبار الناس على مذهب لا يعتقدونه ولا فرضه عليهم.. وإلا فبقاؤها أربعة يعيد نفس المسألة، والتاريخ شاهد على المنازعات الكثيرة التي حصلت بين الأحناف والحنابلة والأحناف والشافعية، وبين الحنابلة والأشاعرة[1] وغيرهم.

وأخيرا: فإن الأمة التي تظل مكبلة بقانون فاسد، اتخذه حاكم خاطئ في وقت سيء ضمن ظروف الصراع والتشنج، هذه أمة لا تستحق العيش في المستقبل، ما لم تغير هذه الحالة.. هذه أمة الماضي؟ لا الحاضر ولا المستقبل.

لماذا يلزم الاعتراف بالتشيع؟

قال تعالى:

{ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ }[2]

الأمة خليط إسلامي متنوع المذاهب، فلا يوجد بلد إسلامي يمكن دعوى أنه متمحض في المذهب الفلاني، نعم يمكن أن يكون هناك مذهب يعتنقه أكثرية السكان، ولكن يوجد إلى جانب ذلك

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢١/ ٨٣.. ثم دخلت سنة سبع وأربعين وأربعمائة.. وفيها وقعت الفتنة بين الأشاعرة والحنابلة، فقوي جانب الحنابلة قوة عظيمة، بحيث إنه كان ليس لأحد من الأشاعرة أن يشهد الجمعة ولا الجماعات. وفي سنة ست وتسعين وخمسمائة.. قتل وزير السلطان خوارزم شاه المذكور: نظام الدين مسعود بن علي وكان حسن السيرة، شافعي المذهب، له مدرسة عظيمة بخوارزم، وجامع هائل، وبنى بمرو جامعا عظيما للشافعية، فحسدتهم الحنابلة وشيخهم بها يقال له شيخ الإسلام، فيقال إنهم أحرقوه وهذا إنما يحمل عليه قلة الدين والعقل، فأغرمهم السلطان خوارزم شاه ما غرم الوزير على بنائه..

وقال الحموي في معجم البلدان ١/ ٢٠٩ قال: فشا الخراب في أصفهان في هذا الوقت وقبله لكثرة التعصب بين الحنفية والشافعية والحروب المتصلة بين الحزبين فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الفرقة الأخرى وأحرقتها وخربتها لا يأخذهم في ذلك إل ولا ذمة. وإن شئت تفاصيل هذه النزاعات فارجع إلى ابن الأثير ج ١٠.

(٢) سورة المؤمنون آية ٥٢.

مذاهب أخرى، فقد تجد في بلد أكثرية تتبع المذهب الإمامي، وفيه أقليات من مذاهب أخرى، وهكذا الحال بالنسبة إلى الحنفي والحنبلي - أقلية بالنسبة للأكثرية، لا أنهم عدد قليل- . وهكذا الكلام هو على مستوى الشعوب، لا الحاكمين.

مع وجود تعدد المذاهب في بلادنا الإسلامية، كيف ينبغي أن تكون العلاقة بين أتباع هذه المذاهب؟ هناك خيارات متعددة:

الخيار الأول: أن تقوم الأكثرية بتهجير الأقليات لأتباع مذاهب الأقليات من بلدانهم.. وإجبارهم على النزوح عن أرضهم..

وهذا النمط بدرجة من الفساد بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان عليه، بل إنه كما يصف القرآن الكريم هو ممارسة الكافرين عادة مع أتباع العقائد، قال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ }[1]، و قال تعالى: { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ }[2].

وهو مرفوض دينيا، بل إن من جملة موارد تشريع الجهاد، والإذن في القتال هو هذا المورد ، قال تعالى: { أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }[3]

وإضافة إلى كونه مرفوضا من الناحية الدينية هو غير ممكن من الناحية العملية الخارجية حيث يكون مثارا للحروب الأهلية التي ترجع على الجميع بالدمار.

---

(١)سورة إبراهيم آية ١٣.

(٢)سورة النمل آية ٥٦.

(٣)سورة الحج آية ٣٩ ـ ٤٠.

إن النزاع على حدود بستان قد يجر إلى القتال وسفك الدماء، فما ظنك بإجبار البعض على النزوح من أرضهم؟ وأمامك التاريخ والحاضر لترى أن قضية حتى الآن عمرها أكثر من خمسين سنة من الزمان، هي القضية الفلسطينية حيث جاء شعب من شتات الأرض، وطرد بقوة السلاح شعب تلك المنطقة من تراب آبائه وأجداده، واحتمى في ذلك بقرارات الدول الكبرى ومساندتها السياسية والعسكرية، ومع ذلك ها نحن بعد خمسين سنة لا يزال الشعب الفلسطيني أول مطالبه عودة اللاجئين والمهجرين.وحتى لو انتهت الآن فإن الأجيال اللاحقة لا تتنازل عن أرضها، سيبقى ذلك مثارا للنزاع والصراع ولن ينتهي.. فهل يمكن لفئة - ضمن أطر دينية - أن تطرد فئة دينية أخرى، وتنتهي القضية بهذه السهولة؟

وهو بعد هذا غير مسموح به دوليا وقانونيا[1].

ولو فرضنا التغاضي عن كل ما سبق، فـ (أول راض سنةً من يسيرها)، بعدما قلنا إن المجتمع الإسلامي متنوع مذهبيا، ولا توجد فيه أكثرية مذهبية مطلقة في كل مكان، بل قد تكون أكثرية هنا وهي نفسها أقلية في مكان آخر، فهل تقبل هذه الأكثرية أن يحكم على إخوانها في المذهب (وهم أقلية في الموضع الآخر) بحكمها على غيرها في هذه المناطق؟

فهذا الخيار: مرفوض دينيا، وغير ممكن خارجيا، ومدان دوليا، ومبدأ لسنة سيئة في مناطق المسلمين..

الخيار الثاني: تسييد مذهب وأتباعه، بمعنى جعل مذهب الأكثرية سيدا، ومقدما.وإقصاء غيره من المذاهب، ومضايقة أتباعه في أرزاقهم، وعدم الاعتراف به وبهم على قدم المساواة ومصادرة حرياتهم الفكرية والدينية..

وهذا بالطبع قد يقوي جهة وفئة لفترة زمنية معينة، لكنه يحمل في داخله الدمار، وقد جربت ولا تزال بعض دولنا الإسلامية، آثار هذا

---

(١) ربما يتخلف هذا على صعيد الواقع ولكن حديثنا عن عدم السماح به ضمن الأطر القانونية واعتباره شيئا غير قانوني.

الخيار المدمرة..والتاريخ شاهد على ذلك.ومع الأسف هذا النمط هو السائد في قسم من بلاد المسلمين.

ولا يستطيع أحد أن يقنع غيره أن الخلاف المذهبي في بعض مسائل العقائد، أو الفقه، يعطي لأصحاب مذهبٍ الحقَّ في أن يكونوا أفضل من غيرهم في فرص العيش، أو التعليم، أو المناصب والوظائف.

ولا يوجد هناك مبرر ديني ولا عقلائي، يقضي بأن من يتمذهب بالمذهب الفلاني من مذاهب المسلمين يتقدم على غيره (في الواقع الخارجي)، وإن كان كل واحد يعتقد أنه أقرب في مذهبه إلى الله، ولكن هذا شيء وأن يرتب على هذا الأمر صلاحيات خارجية شيء آخر. فماذا يعني أن يتقدم فلان في الوظيفة لأنه يتبع إمام مذهب يقول في الوضوء بكذا.. أو في العقائد كذا.

بينما قد قرر الله عز وجل في قرآنه: (وإن هذه أمتكم أمة واحدة)، فمع علم الله بأنه سيكون فيها فرق ومذاهب، فإنه يوجه الخطاب بعنوان الأمة الواحدة.

ويقرر النبي ﷺ أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

ثم هل ترضى بهذا القانون في أماكن أخرى: إن كان الشافعي أكثرية هنا يؤخر الأقلية الحنفية، فهل يقبل الشافعي أن يتقدم الحنفية الأكثرية في مكان آخر ويؤخر الشافعية الأقلية؟ و (أول راض سنة من يسيرها)!

الخيار الثالث: الاعتراف المتبادل بين المذاهب الإسلامية، والتعامل مع أفرادها على أساس أنهم مواطنون، بغض النظر عن مذاهبهم، وتحكيم أمر المواطنة المشتركة التي تفرض على كل واحد منهم واجبات وتوفر له حقوقا كحقوق غيره من المواطنين.. والعالم اليوم يجرب هذه الحالة في مناطقه الهادئة ويجد ثمراتها الخيرة.

قد يكون الحاكم يميل إلى هذا المذهب أو ذاك، ولكن الذي يحكم العلاقة بين المواطن والحاكم والمواطن الآخر هو المواطنة، وليس بالضرورة اتفاق الحاكم مع المواطن في الاعتقاد بمذهب واحد، وهكذا علاقة المواطنين في ما بينهم سواء في مراكز العمل،

أو غيرها، فإن الاشتراك في المواطنة يجعلهم بالنسبة للوطن على حد واحد في الحقوق.

النبي ﷺ أعطى حتى اليهود بعدما اتفق معهم، على المواطنة أعطاهم حقوقهم، مع ما هو معروف من الخلاف بين الدينين، بل ما هو موجود من أوصاف غير حسنة في القرآن عن اليهود..

وربما لهذه الجهة: يقوم الطائفيون بالتشكيك في وطنية الشيعة وعلاقتهم بأوطانهم! زاعمين بأنه لما كانت مرجعياتهم خارج أوطانهم!! فإن ذلك يعني أن وطنيتهم مشكوك فيها.

والجواب

أولا: أساسا ليس هناك في ثقافتنا الدينية ما يبرر وصف هذا بأنه أجنبي وذاك غير أجنبي مادام مسلما ومؤمنا..ونرى أنه طبقا لما جاء في كتاب الله العزيز أن مقياس التفاضل، هو التقوى وميزان الرفعة هو العلم، فمن أكثر منهما ارتفع بغض النظر عن أرضه ومحل سكنه، قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[1]، ويقول عزوجل: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[2].

ونحن نرى أن ميزة الكفاءة العلمية هي التي تدعونا إلى اتباع فلان سواء كان عربيا أو أعجميا أو تركيا أو هنديا.. فالميزان عندنا هو الكفاءة العلمية.

ثم بعد التغاضي عن هذا نقول: إنه عندما كانت مرجعياتهم محلية هل كانوا يرجعون إلى الخارج؟ فإذا صار التعليم الديني غير مسموح به، والكتاب الديني غير متوفر فكيف يمكن أن تنشأ مرجعية دينية محلية؟.

ثانيا: لماذا كان الارتباط العلمي والفكري بين الشيعة ومراجعهم

---

(١)سورة الحجرات آية ١٣.

(٢)سورة المجادلة آية ١١.

الدينيين في الخارج مضرا بالوطنية، وارتباط غيرهم غير ضار؟ مع أن (حكم الأمثال في ما يجوز وفي ما لا يجوز واحد) فإن الشافعية مثلا في مناطقهم يرتبطون بالأزهر في مصر، والحنابلة أو السلفيون يرتبطون غالبا بالمؤسسة الدينية في السعودية، وهكذا.. فلماذا يضر الارتباط الديني هناك ولا يضر هنا؟

بل ارتبط كثير من هؤلاء المتشنجين بأفغانستان على مستوى البيعة (لأمير المؤمنين) وبعضهم قاتل.. فلماذا لم يؤثر ذلك على وطنيتهم، وأثّر ارتباطٌ على مستوى الاستفتاء الفقهي في وطنية الشيعة، فأفسدها! قال تعالى: {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[1].

لماذا يكون الاعتراف بالتشيع ضرورة؟

بعدما لاحظنا في الحديث السابق أنه لا يوجد مبرر صحيح يقنع الناظر بسبب للتنكر، وعدم الاعتراف بالمذهب.. نقول هناك في المقابل أسباب تدعو إلى الاعتراف:

١/ واقع موجود على الأرض لا يمكن إنكاره، البعض يقول أن عدد الشيعة اليوم يزيد عن ربع المسلمين، ولو فرض قياسهم إلى كل مذهب بمفرده لكان الأكثر بينهم عددا أو مساويا لهم.. إذا كان الكلام عن التدبير والتنظيم لهذه المجتمعات، فمن الأولى الاعتراف بهذه المجموعة البشرية بما لها من تعبد خاص، ومنهج خاص..

إن العاقل هو من ينظر على الواقع ويتعامل معه.. بغض النظر عن إعجابه به أو تبرمه منه. و السياسي الحكيم هو من ينظر إلى مكونات رعيته نظرة واقعية ويتعامل معها على هذا الأساس، فينظم أمورها ويوفر لها حقها بغض النظر عن كونه يحب تلك المكونات والشرائح أو لا.

وبهذا المنطق وجدنا أن العقلاء في بلاد الغرب استطاعوا التقدم وساد الانسجام في مجتمعاتهم بالرغم من وجود التباينات الثقافية والقومية والدينية في مكونات تلك المجتمعات.

---

(١)سورة الصافات آية ١٥٤.

انظروا إلى البلاد الغربية: المسلمون ينعمون فيها بالحرية الدينية بشكل لا ينعمون به في بعض بلادهم! فهل يصح أن يكون الحنفي مثلا أو الإمامي أو غيره ينعم بحرية دينية في بلاد مسيحية، لا ينعم بنصف تلك الحرية في بلده المسلم؟ أليس هذا من المفارقات؟ وألسنا أحق بذلك في بلادنا الإسلامية؟!

٢/ تخفيف أو حذف مصدر من مصادر التشنج في المجتمعات الإسلامية، سواء بين أفراد المجتمع أنفسهم أو بينهم وبين حكوماتهم.. (بعض المجتمعات تتعامل مع القضية الشيعية وكأنها تنظيم سري حزبي، وتصنفه ضمن الدوائر الأمنية ويصبح كتاب المسائل الشرعية، أو الاعتقادية دليل جرم!!، ويسجن الشخص لأنه يدعو إلى المذهب الشيعي!!

وما أحسن ما قاله الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين مخاطبا الشيخ سليم البشري، بل جميع المسلمين:

«هلم بنا إلى المهمة التي نبهتنا إليها من لمّ شعث المسلمين، والذي أراه أن ذلك ليس موقوفا على عدول الشيعة عن مذهبهم، ولا على عدول السنة عن مذهبهم وتكليف الشيعة بذلك دون غيرهم ترجيح بلا مرجح، بل ترجيح للمرجوح، بل تكليف بغير المقدور، كما يعلم مما قدمناه.نعم يُلم الشعث وينتظم عقد الاجتماع بتحريركم مذهب أهل البيت عليهم السلام، واعتباركم إياه كأحد مذاهبكم، حتى يكون نظر كل من الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية إلى شيعة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كنظر بعضهم إلى بعض، وبهذا يجتمع شمل المسلمين وينتظم عقد اجتماعهم.والاختلاف بين مذاهب أهل السنة لا يقل عن الاختلاف بينها وبين مذهب الشيعة تشهد بذلك الألوف المؤلفة في فروع الطائفتين وأصولهما، فلماذا ندد المنددون منكم بالشيعة في مخالفتهم لأهل السنة، ولم ينددوا بأهل السنة في مخالفتهم للشيعة؟ بل في مخالفة بعضهم لبعض، فإذا جاز أن تكون المذاهب أربعة، فلماذا لا يجوز أن تكون خمسة؟ وكيف يمكن أن تكون الأربعة موافقة لاجتماع المسلمين، فإذا زادت مذهبا خامسا تمزق الاجتماع، وتفرق المسلمون طرائق قددا؟ وليتكم إذا دعوتمونا إلى الوحدة

المذهبية دعوتم أهل المذاهب الأربعة إليها، فان ذلك أهون عليكم وعليهم ولم خصصتمونا بهذه الدعوة؟ فهل ترون إتباع أهل البيت سببا في قطع حبل الشمل ونثر عقد الاجتماع، وإتباع غيرهم موجبا لاجتماع القلوب واتحاد العزائم وإن اختلفت المذاهب والآراء، وتعددت المشارب والأهواء، ما هكذا الظن بكم، ولا المعروف من مودتكم في القربى»[1].

٣/ تفويت الفرصة على المنتفعين من الخلاف، والذين يعتاشون عليه: كما تقتات الحشرات على المزابل فإن في الأمة من يعتاش على الخلاف والتشنج، وهم الذين يسجّرون نار الخلاف كلما هدأت، ويثيرون غبار الإحن والبغضاء مهما قرّت.. وإن الاعتراف المتبادل بين أتباع المذاهب يحجّم هؤلاء ويفتل ما نسجوه من فتن.

٤/ الاعتراف حق من حقوق أتباع أهل البيت، لأن في عدم ذلك مصادرة للكثير من حقوقهم.. يتعبد الواحد منهم وهو يشعر أنه يرتكب شيئا خلاف القانون الرسمي!! ويحتاج لممارسة ذلك إلى طرق غير سالكة.. ويكلف نفسه الكثير من الجهد والمال في سبيل الوصول إلى حقه في عبادته أو حريته في فكره، بينما لو كان الأمر رسميا وكان يعترف به لوفر على نفسه ذلك الجهد، والمال في بناء المجتمع ونفع أبنائه.

كما أن أجهزة الدول التي يعيش فيه هؤلاء والتي تراقب وتلاحظ وتمنع، هذا الكتاب وتلك المؤسسة، وتتابع هذه القضايا لتصرف كثيرا من الجهد، والمال والطاقات كان أولى بها أن تصرف في موارد أخرى في التعليم، والعمل، والتنمية.

٥/ إن عدم الاعتراف لن يفضي إلى نهاية التشيع كما يظن بعض بذلك! فإن تاريخ ما يزيد على ألف (١٠٠٠) سنة من الزمان من الإقصاء والحجب، لم يصنع شيئا سوى التحدي، والصمود، والاستمرار.. بل التجربة دلت على أن الأقليات (مع تذكيرنا بأن

(١) المراجعات ص ٦٣

التشيع إن كان أقلية في مكان فهو أكثرية في آخر تنشط في أوقات التحدي، وتنتعش في حالات الصراع، وتشعر بخصوصيتها بشكل أفضل في مثل هذه الحالات أكثر مما تشعر ذلك في أوقات الاسترخاء.إنها تستجيب للتحدي المفروض عليها فتحشد كل طاقتها ، وكفاءات أبنائها ، خوفا على وجودها فتتبعث قوتها وقدرتها ، وتصبح بعد استجابتها للتحدي أفضل مما كانت عليه قبل ذلك[1].

صور الاعتراف

١/ أول صورة من الصور: ما يرتبط بالتعليم والإعلام.عندما يتربى الطفل منذ سنوات عمره الصغير على أن أباه كافر، وأمه مبتدعة، وجدته مشركة.. كيف يمكن له أن ينشأ على محبة من حوله، والمحيط الذي يعيش فيه.التعليم ينبغي أن يرفع المجتمعات من حالات الإحن والحقد إلى ألق الأخلاق.

وفي الإعلام، لا يجوز أن يكون هناك تجريح وهتك لباقي

---

(١) في مقدمة كتاب حصر الاجتهاد للمحقق آقا بزرگ الطهراني ص ٦٠: وكان الباعث على تأليف الذريعة هو ما ذكره (جرجي زيدان) في كتابه" تاريخ آداب اللغة العربية ط ١٩١١ م" حينما تحدث عن الشيعة فقال ما خلاصته: " الشيعة طائفة صغيرة لم تترك أثرا يذكر، وليس لها وجود في الوقت الحاضر ". فدفع هذا القول بالشيخ آغا بزرك ورفيقيه في العلم " السيد حسن الصدر" المتوفى عام ١٣٥٤ و " الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء " المتوفى عام ١٣٧٣ أن يتعاهدوا ويأخذ كل واحد منهم على عاتقه بيان جانب من جوانب الثقافة الشيعية الفنية والتعريف بها ". " وقد تقرر أن يبحث العلامة السيد حسن الصدر حول الآثار العلمية الشيعية، وبيان فضل الشيعة، وسهمهم في تأسيس علوم الإسلام، وظهرت ثمرة بحثه في كتابه " تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام " الذي طبع بمساعدة الشيخ نفسه عام ١٣٧٠. أما العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء فقد تقرر أن يكتب نقدا لكتاب جرجي زيدان " تاريخ آداب اللغة العربية " ويكشف عن كل أخطائه فيه، وقد نفذ هذه المهمة، وكتب نقدا علميا جامعا للكتاب بمجلداته الأربع وإما الشيخ اقا بزرك فقد تعهد أن يكتب فهرسا يجمع فيه أسماء كل مؤلفات الشيعة، والذريعة كتاب في ٢٩ مجلدا، فيه ٩٤ عنوانا في موضوع أصول الاعتقادات، وفي خصوص موضوع الإمامة هناك ١١٩ عنوان كتاب، وفي تفسير القرآن يصل إلى ٣٥٠، ومع الإرجاعات إلى ٧٠٠ عنوان، وفي نهج البلاغة إلى ٨٦ ، هذا غير سائر القضايا من فقه وأصول وفلسفة وغيرها.. وأما في الحسين a فقد ذكر أكثر من ألفي كتاب.

المذاهب.فإن الوسائل الإعلامية هي مرآة المجتمع المعاصر، وتستطيع من خلالها أن ترصد الحركة الثقافية والتوجهات السياسية. ولا نعني بذلك أن لا يكون هناك حوار أو انتقاد للأفكار فلا مانع منه إن كانت الفرص المعطاة لأتباع المذاهب متكافئة في الرد والتوضيح والشرح.

٢/ ما يرتبط بحرية العبادة والأماكن الدينية.. وما يلحق بها من أمور مرتبطة بالثقافة الدينية التابعة لهذه المذاهب.

٣/ معاقبة من يحرض على الكراهية، ويفتي بالتكفير.. باعتباره جريمة، فإننا نلاحظ أنه يمكن أن يقيم دعوى على إنسان لو شتم آخر، في مجتمع بعد الإشهاد عليه، ويستحق العقوبة، فما ظنك بمن يكفّر أكثر من ثلاثمائة مليون نسمة.. هذا ينبغي أن يقام عليه ثلاثمائة مليون دعوى في المحاكم.. وإذا تركنا الأمور بهذه الصورة، يكفر من يريد التكفير، ويُبدع ويفسق، فإن هذا لا يكون مجتمعا إنسانيا، بل هو غابة!!.

لقد قام شخص مسيحي بالتهجم على المسلمين في أمريكا، فقامت الدنيا عليه ولم يقعدوها وطالبوا باستقالته.. بينما في بلادنا الإسلامية يكفر بعض مشايخها طوائف كثيرة من المسلمين، فلا تجد صوتا يرتفع محاسبا أو موبخا!!

إن هذا هو الغرس المر الذي نشأ منه حصاد حركات التكفير.. وسوف يستمر هذا الموال: فئة تستطيع تكفير الفئة الأخرى والشباب يكفرون الكبار، وهؤلاء يكفرون الحكومة على هذا المعدل، ما لم تتم معاقبة من يقوم بهذا العمل.

٤/ تجريم من يمارس الإقصاء: سواء في التعليم، أو العمل، أو الإعلام، أو الحياة العامة.

ونحن نحمد الله أن بعض قيادات المسلمين قد توجهت بإخلاص إلى إصلاح وضع الأمة ورفع مسببات الحيف والتمييز حتى تتبوأ الموقع الذي أراده الله لها، ونسأل الله أن يتوجه إليها برحمة في زمانها هذا

كما توجه إليها برحمة في أول أمرها فبعث فيها رحمة {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[١]، وأعانه على تغيير الأمة بأسلوب الرحمة {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٢].

(١)سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٢)سورة آل عمران آية ١٥٩.

المحتويات

شيعة القطيف والأحساء ١
عراقة الماضي وتطلعات المستقبل ١
مقدمة ٥
الجذور التاريخية للتشيع في بلادنا ٧
١/ الجهة التربوية ٧
٢/ الجهة الوطنية ٨
٣/ جهة المسؤولية الفردية ٨
في أيام الدولة الأموية ١٦
من مشاكل النهوض في مجتمعنا الشيعي ٢٣
مقدمة في المنهج القرآني ٢٥
لماذا نتعرض إلى هذه المشاكل؟ ٢٦
تضخم الشعور بالمظلومية ٣١
الآثار السلبية للفكرة الخاطئة ٣٤
فما هي هذه الآثار: ٣٤
كيف نحول هذا الشعور إلى قوة دافعة؟ ٣٧
المثالية (غير الواقعية) ٤٠
بين المثالية والمبدئية ٤٤

المجتمع بين صناعة القيادات ودفنها ٤٦
صفات المجتمع صانع للقيادات ٤٨
شتان بين الموقفين ٥٢
بداية الإصلاح الديني ٥٥
الاعتراف بالمذاهب الإسلامية ٥٧
أسباب حصر المذاهب في الأربعة ٦٢
ما هي المبررات التي تُذكر لعدم الاعتراف بالتشيع؟ ٦٦
لماذا يلزم الاعتراف بالتشيع؟ ٦٨
والجواب ٧٢
لماذا يكون الاعتراف بالتشيع ضرورة؟ ٧٣
صور الاعتراف ٧٦
المحتويات ٧٩